# كاريكاتير عن بلد كبير

........................................................................................

مجموعة قصص هزلية

# كاريكاتير عن بلد كبير

أحمد المصارع

كاريكاتير عن بلد كبير

تأليف: أحمد مصارع

الطبعة الأولى: ٢٠٠٩.

عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة.

جميع العمليات الفنية والطباعية تمت في:

دار ومؤسسة رسلان للطباعة والنشر والتوزيع



يطلب الكتاب على العنوان التالي:

**دار ومؤسسة رسلان**

للطباعة والنشر والتوزيع

سوريا ـ دمشق ـ جرمانا

هاتف: ٥٦٢٧٠٦٠ ١١ ٠٠٩٦٣

تلفاكس: ٥٦٣٢٨٦٠ ١١ ٠٠٩٦٣

ص. ب: ٢٥٩ جرمانا

# إهداء

إلى أخي

الدكتور عبد الله مصارع

اعترافاً بفضله

# حبابتي ترفه

حبابتي، إنها الحبوبة حبابتي، فهي ليست مجرد كلمة تنطق بجفاء، ففي النداء عليها (حبحبة)، فأنا حين أنحني أمامها، أضع يدها على جبيني، ثم أقبلها بوقار، فاسمها مشتق من الحب المتراكب، من أين جاءت الكلمة: حباب؟ فالجميع هنا يردد النداء على حبابته، وهو لا يعلم ما هو مصدر الكلمة، ربما كانت آرامية سريانية،أو حتى عربية، ولولا وجود عدة كلمات للمناداة على(العواجيز)، لما اهتممت بأصل الكلمات، فهناك (نانتي) التركية والشركسية، أو الأرمينية والكردية، وبالمدرسة تعلمت مفردة جديدة هي: جدتي، هل هذا لا يهم؟!.

أعرف أنكم تستعجلون معرفة الألغاز، تريدون النتائج السريعة هكذا بدون جهد وكما يقولون عندنا على البارد المبرد.. وإليكم سيرتها، حبابتي شيخه،

وشيخة عرب وجدها دعيجل الحمد فارس من فرسان العرب ذوي الأصل والفصل والحسب والنسب.

الموقد الذي لا تخبو ناره لتدور القهوة المرة بالليل والنهار، ثم السجائر اللف التي لا تنقطع ودوائر الدخان التي تتجاوب مع دخان الموقد في كل ساعة ولحظة بل في كل يوم، ومن خلال الدخان يمكنك رؤية حبابتي الغارقة بأبهة بالغة مع الوشم على الذقن والأنف بالحبر الأزرق الغامق هل هي برموزها المتداخلة والعريقة، ترمز لجمال الأندلس المفقود؟! لا أدري هكذا سمعت بعض الفهامة الكبار يذكرون ذلك.

أما جدي الغائب غالباً والحاضر أحياناً فقد كان يكثر من النداء حين يأتي

- أين أنتم؟ يا أولاد.. اعتنوا بالشيخة حبابتكم.

إنه يمد الشيخة حبابتي بكل أشكال التجلي ويبث روح الحيوية في كل لحظات حضوره المؤقت ويملأ المضافة حبوراً وسروراً، ومن حين لآخر يصيح هاتفاً بمرح:

- أين الشيخة؟ أحضروا ال.. هاتوا ال..؟ لا تتركوا الشيخة تعمل، وتتألق حبابتي كنجم من نجوم الاحتفالات حين ترانا نتراكض لتلبية طلبات جدي ولم لا.. فنحن جميعاً الأحفاد والأعمام من أبنائه، نتراقص حول طلباته، كما يرقص البعض حول العجل الذهبي، فجدي صاحب كيس الليرات الذهبية العثمانية الزاهية والمتلألئة والضاحكة كالنور على مرايا سطح الفرات.

كانت عمة أبي تأتي لزيارة الشيخة حبابتي من شهر لآخر حيث يرافقها حشد من النساء، وهي عجوز معمرة أكثر من النسر، وبالنسبة لها فإن جدي وحبابتي الشيخة هما من عمر الأولاد وهي تكرر التوبيخ وتطلق نفس التعابير:

- ما زال على عاداته؟! أليس كذلك؟. ولية شيخة أين أنت..؟! قولي له أن يصلي ولو ركعتين شكرا للّه حتى تدوم النعم. وترد الشيخة حبابتي بحذر بالغ:

- اللّه يهدينا ويهديه، تلتفت حولها لترى أبي من حولها تبتسم فتقمعه بصوت متقطع -: (يوال) محمد...

يوال.. قل لأبيك يترك السهر والدبك بالأعراس.. وال..؟ ما بعد الحياة سيأتي الموت.

حين يقطع أبي كلامها قبل أن تكمل وهو يراقب عيون أمه التي تتفرس بنظرات حادة فلا تطمئن حتى تسمعه يقول باستغراب:

- أنا..؟ يا لطيف..! الدنيا مقلوبة..! هل أنا أبوه أم هو أبي.؟!

من منا مستعد للتساؤل أين يقضي جدي ليله؟! ومع من يسهر ويتغيب الليالي بينما يحضر للمضافة العربية فإن كل شي يتحرك زيادة عن اللزوم، الشيخة حبابتي لوحدها تملأ صدر الغرفة الكبيرة متكئة على الوسائد العالية وعلى الحائط خلفها رؤوس غزلان وفي الوسط تماماً، بارتفاع قامة رجل علق سيف مفضض، لست أدري إن كان السيف يماني؟ أو هنداوني؟ قبضته مرصعة بألوان حمراء وصفراء وزرقاء بينما الغمد فضي.

سمعتهم يقولون إن السيف من عصر جدي الأول أبي الفوارس ولست أذكر..! الشيباني..لا.. لا.. تذكرت الزبيدي.. نعم يمكن أن يكون هو.

حبابتي الشيخة أذكرها حين تطردني بنعالها حول الحوش ولا ترتاح حتى يستقبلني الشارع خارج البيت الكبير والباب ذي المسامير ذات الرؤوس المكعبة والبرونزية كأنه بوابة قلعة. إلى أين أذهب وأذكر صوتها يصرخ بلؤم:

- انقلع إلى بيت أهلك.

المهم بالنسبة إلي أنا واحد من أبناء البلدة الكبيرة وهم كثيراً ما يشتمون ويسبون لا يعيرون للآخرين أدنى الاعتبار ويتحدثون بصوت عالٍ ولذلك فأنا أرد حانقاً عليها بالشارع:

- اللّه ينعل أبو جد حبابتي طز من أبو الفوارس.

صحيح أنا صغير بل وحتى أبي لا يملك القدرة على الدفاع عني ضد أمه الشيخة ولكن الدنيا تدور والعدالة الإلهية موجودة.. تكرر ذلك أكثر من مرة وسأقص عليكم أظرفها وليس أقساها.

في ليلة من ليالي الشتوية وكان جدي غائباً عن قصر ها المنيف اكتشفت حبابتي (شيشة) زجاجة مشروب بلون الماء وصرخت علي بصوت حنون هذه المرة:

- أحمـدي.. أحمـدانا تعـال يـوال. ورق قلـبي بصـوت الشيخة المتضرع والحنون وهذا ليس من عاداتها.

- حاضر حباب.

سألتني ببلاهة:

- ماذا بهذه الزجاجة أحمدانا؟

فأجبتها على الفور:

- حباب هذه شنينة تركية خاثر ولبن.

قالت معاتبه:

- (يوال) (أحمدنا).. أنت تضحك علي.

فرددت عليها عابساً - لا والله حبابتي

فسـألت بفضـول وهـي تنفـث دخـان سـيجارتها اللـف حتى لم أعد أرى ملامحها:

- كيف هذه شنينة تركية وهي بلون الماء؟

فأجبتهـا جـاداً: أنـتِ لا تصـدقين ألـيس كـذلك؟ هـل أنت مستعدة لتجربتها؟ عادت وأكدت:

- (يوال) أحمدنا لا تضحك علي..

فقلت لها بثقة: إليك البرهان يا حبابتي واتجهت نحو الدن (الزير) الذي يحتوي على الماء البارد ثم ملأت الطاس وأضفت إليها نصف الزجاجة فصارت بيضاء كالحليب وكأنها الشنينة فاندهشت لمنظر الزجاجة كالماء والطاس كاللبن فصاحت بعجب:

- يا للّه.... يوال أحمدنا... أنت بلوه.

فدافعت عن نفسي ببراءة:

- لا واللّه يا حبابتي.. لكن الشنينة التركية مرة الطعم بالبداية وبعد ذلك تصبح حلوة، وأنا جربتها أكثر من مرة.

قالت متسائلة: ولكن الشنينة حامضة.

فقلت لها: يا حبابتي الشيخة الشنينة يختلف طعمها من بلد لآخر وهذه شنينة السلاطين، في البداية فقط ستجدين طعمها مختلفاً.

تركت الزجاجة عند الموقد بجانب الشيخة حبابتي ووقفت بجانب الباب الكبير بينما راحت حبابتي تجرع اللبن المر حتى صار حلواً في ريقها وانتشت وخف رأسها وشرعت تتمتم بصوت عال، وشيئاً فشيئاً وسمعت بعض

أطرافه، إلى أن تعالى الصوت.. دح.. ثم شرعت دح.. دح.. تعلو أكثر فأكثر وجلبني الفضول لمعرفة نتيجة شرب الشنينة، ما إن لمحتني حبابتي حتى هتفت:

- يوال.. أحمدي.. هذه شنينة السلاطين أحسن من القهوة المرة العربية. وراحت تهز برأسها من النشوة وتردد كالغناء:

- دح.. دح.. دح..

وفجأة وقفت كالفارس وأنزلت السيف العربي وسحبته من الغمد، وهو لم يسحب منذ زمان بعيد وراحت تلوح به يميناً ويساراً وترفعه وتخفضه وكأنها دون كيخوته يحارب الهواء نفسه هذه المرة.. وشرعت تدبك.

وإذ دخل جدي ورآها تدح دح وتتهادى بالسيف حتى هتف ضاحكاً

- يا وليد.. ماذا خطر ببال حبا بتك! تدبك الدحه؟

فأجبته على الفور:

- يا جدي، لقد سألتها ماذا تشربين؟ ما هذه الشنينة؟ قالت شنينة السلاطين.

كانت هذه هي المرة الأولى التي يطردني فيها جدي من البيت ويحرص بنفسه على إغلاق البوابة الكبيرة المفتوحة على الدوام للزوار من الأبناء والأحفاد. وأصغيت بإذني من خلف البوابة فلم أسمع شيئاً ولكني رأيت الأنوار قد انطفأت وساد الصمت.

# جنون الأسمر

كان عمي شيحان أحد أفراد عشيرتنا المنتشرة في البرية الواسعة شمال بلدتنا الكبيرة، وحيث يعيش هناك، كان قد قضى معظم حياته يرعى قطيعاً صغيراً من الأغنام وهو ينتقل من مرعى لآخر مع عجوزه وخيمته السوداء والمنسوجة من شعر الماعز، بصحبة حماره وبسطه وظروف الجلد، وكان من النادر مشاهدته في سوق البلدة يقضي بعض حوائجه أو يبيع شيئاً ليستبدله بآخر.

كان عمي شيحان عجوزاً سبعينياً نحيفاً وطويلاً وبقامة صلبة ويدين خشنتين ووجه صارم، بسمرة داكنة، لا تفارقه عباءة الصوف الملحة صيفاً أو شتاءً واشماغه أزرق اللون، وعقاله غليظ وثقيل الوزن.

وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب ولا يحفظ حتى قصار السور من القرآن العظيم ولا يصلي أبداً، وليس ذلك لجهالة فيه، بل لجهل بأصول الدين وبعد دائم عن

العشيرة وعن بلدتنا الكبيرة، يردد بعض الأحيان كلمات وجمل من مثل:

الله أكبر.. استغفر الله.. أشهد أن لا إله إلا الله.. (بصلاة أمحمد) وهذا تقريباً كل ما يعرفه من شؤون الدين.

ويقال إن أحد الرجال المتكسبين من الدين، زاره مرة فدهش من جهل عمي شيحان وأقسم ألا يتركه حتى يتعلم الصلاة، وبين شد ومد، بين الحفظ والنسيان وحركات الصلاة التدريبية، تسلل قطيع الغنم الصغير ولساعات طويلة، وكانت خالتي هنوف منشغلة بالطبخ والنفخ وغسل القدور وقد نامت من التعب.. ساعات من الغفلة والتعبد، ضاع فيها القطيع وشرد وكان يوماً مشئوما انصرف فيه رجل الدين مذموماً، ظهر فيه كوجه للشؤم واستقر الخوف في قلب عمي شيحان منعكساً شرطياً، فالصلاة في البرية تؤدي إلى ضياع الحلال وخراب الخيمة، ومع الأيام غدت الفكرة طريفة ومهجورة بالنسبة له لأنه يتحدث عنها بمرح في كل خمس سنوات مرة:

- (يوم جاء هذاك الشيخ.. تلك السنة.. من الوقوف والقعود. من الركوع والسجود.. ضاع الحلال).

كان الفصل ربيعاً حين حمل عمي شيحان بعض الفائض من الخاثر والجبن والسمن والفضل، لخالتي هنوف، فقد وضعت كل شيء في ظرف جلدي خاص واستقل حماره وقصد البلدة في الصباح الباكر حتى يصل وقت الضحى الأول من حركة السوق، وقبل الضحى الثاني يكون قد عاد إلى خيمته محملاً بما يحتاجه لموسم كامل، وعندما وصل إلى أطراف المدينة تقابل وجهاً لوجه مع الشاب الأزعر عوجان، كان عوجان قد غادر المدرسة يائساً من النجاح في الشهادة الابتدائية لعدة سنوات وعن قريب سيلحق بالعسكرية كمجند، كان عوجان يحمل في سترته زجاجة خمر وبيده عليجة فيها ملحقات الشراب وبادره بالهتاف:

- مرحباً يا عم..

- أهلاً بابن أخي..

- كأنك تقصد البلدة؟ علوم خير(إنشاء الله)

- نعم والله.. (علمك.. شغيلات صغيرة..)

سأله عمي شيحان وهو يتفرس هيئته:

- (أنت منين ابن أخوي؟)

رد عليه عوجان متفاخراً:

- أنا من عيال الجربة يا عم..

وتهلل وجهه الشديد السمرة فقال:

- (والله أنا يا ابن أخي.. عمك.. (عمك اللزم)

ثم طلب منه عمي شيحان متودداً:

- (ابن أخي خذ بعض الخاثر وبعض الجبن.. (والله إلا تأخذ)

وأغدق عليه وأوشك أن يكمل طريقه مسروراً بعطيته لولا أن عوجان سأله:

- ألم تسمع يا عم بموت الشيخ طليبان؟ لقد مات البارحة..

اضطرب عمي شيحان بين السرور من لقاء عوجان، ومن الحزن على وفاة شيخ العشيرة، وهو شيخ صنديد، معروف بفروسيته وكرمه.

-...لا.. يا ابن أخي.. صحيح؟.. (بالله عليك صحيح؟)

الله يرحمه

- والله يا عمي لا أكذب عليك أبداً.. هل ستذهب إلى عزائه يا عم..؟

قال عمي شيحان:

- العذر من الله.. والله أنا ما أعرف العزاء.. عمك أمي.. ما يفك الخط.

وقف عمي شيحان حائراً بينما راح عوجان يفهمه كيف يتصرف بالعزاء كيف يدخل، وماذا يقول، بينما عمي شيحان لا يفقه شيئاً وقال شاكياً:

- العذر من الله يا ابن أخي.. أنا والله لا أعرف ماذا أتكلم.. وماذا أقول؟

بدون مبالاة قال عوجان:

- قل أي شيء يا عم..

- ماذا أقول؟!

انفعل عوجان وضاقت حوصلته فقد آن وقت جرعة الخمر وراح يشرح له ما يتوجب عليه فعله:

- اذهب إلى السوق، أكمل قضاء حاجياتك ثم

انطلق نحو السور العتيق شرقاً وعندما تصل باب بغداد ستجد هناك خيمة عزاء كبيرة، ثم قف بالباب وقل

- السلام عليكم بصوت عالٍ..

وبعد أن يردوا عليك السلام قل بصوت عالٍ:

(الشاب الأسمر جنني.. الشاب الأسمر جنني)، وهم سيردون عليك جميعاً:

- يا عيوني

كررها كلما قدرت على ذلك.. وهذا باختصار.

لقد فعلها عمي شيحان وساد العزاء المهيب ضحك جريء، وعرف القوم أن (عجياً) ملعوناً هو من لقنه الدرس وألقاه في أتون موقف محرج للغاية، وظل عيال الجربة لمدة طويلة يستقصون عن شكل هذا الشاب الملعون طوله وعرضه وملابسه، ولأن عوجان كان قد سمع قصة الضحك في عزاء الشيخ ووصفه بالعجي الشيطان، فقد ظل هارباً عن أنظار الناس لئلا يتعرفون عليه بفراستهم العربية المعروفة ولكي يتجنب، ضربة دبوس قد ينشبها أحدهم بين ضلوعه وهي ضربة تتخلع منها الأكتاف وتتكسر العظام.

# بطل آسيا

ليتني بقيت صغيراً ولم أكبر بعد ، لأن أخي حسين، بطل آسيا ، بل بطل العالم كما كانت تصفه أمي دائماً وهي تحكي عن بطولته في كل المناسبات، ولكنه لم يعد كذلك في هذه الأيام.

كان أخي حسين أقوى من البغل، أضخم من الفيل الصغير، أعلى من الجمل،فجسمه مجرد عضلات قوية وعروق نافرة، ملاكم وقبضته تحطم حجرة الفخار المشوي بضربه واحدة، بينما ذراعاه تحملان كيسين من الشعير بسهولة، حقاً جسمه مثل أجسام أبطال كمال الأجسام، كنت شغوفاً كي أعرف لماذا كان البعض من أقربائي يقولون عنه صاحب مخ صغير جداً فأنا لا أفهم لماذا هو كبير وقوي في كل شي إلا مخه الصغير؟!.

كل البيض الذي تضعه عشرات الدجاجات يلتهمه عند الإفطار، كل حليب البقرات المعدودة يشربه، بل إن

محصول البندورة (الطماطم) في مزرعتنا بأسره لا يكفي عصيره، يعصر الصندوق تلو الآخر، ثم يشفطه عندما ينتهي من التدريب، وهو على ثقافة عالية، فرغم كون بيتنا مجرد خرابة في مزرعة، إلا أنه كان يحتوي على مكتبة، مكتبة، فيها أعداد كثيرة من مجلات رياضة كمال الأجسام ورفع الأثقال، وعشرات الصور للأبطال ذوي العضلات المفتولة.

وعلى ما يبدو فإن أبي الفلاح وأمي الفلاحة وإخوتي الكبار الذين يشتغلون بالفلاحة بدؤوا يضيقون ذرعاً من ثقل فاتورة طعام أخي البطل، الذي كان يشتغل بجد متواصل، في الليل والنهار يتدرب لكي يتفوق على صور المجلات، ليصير أقوى ما يكون ويحوز على كأس البطولة، وليحقق لبلدتنا الكبيرة نصراً زاهياً يجعلهم يفتخرون بأنفسهم. لم لا وهم أهله وذووه؟.

كنت صغيراً عندما نشأت الأزمة الكبرى بين أخي وأهلي وسكّان بلدتنا الكبيرة، فأخي البطل حسين يريد الاشتراك في بطولة كمال الأجسام الآسيوية وهو مصممٌ على الفوز بالبطولة.

مكان البطولة بعيد والمصاريف باهظة، بطاقة سفر واشتراك وإقامة لأيام وربما لأسابيع، من يستطيع تغطية هذه التكاليف؟!.

أهل بلدتنا الكبيرة مشهورون بالعناد، فليس من السهل معرفة من هو الأكثر عناداً فيما بينهم، الواحد منهم أعند من الآخر، فكيف استطاع أخي البطل تحديهم جميعاً، إلى درجة التهديد، نعم هددهم وأذكر صوته غاضباً:

- أنا لا أفهم. أنا لا أعرف.. سوف تخلقون لي المبلغ من تحت الأرض.. من فوق السماء..

أمي خافت عليه من ارتكاب حماقة، وأبي قطع كل خطوط الحوار معه، وإخوتي تهربوا وأعمامي لم يعد لهم وجود وأجدادي انقطعوا عنا وكأن لا أصل لنا وأهل بلدتنا الكبيرة الأقرباء، وكلهم أقرباء، أصبحوا كالغرباء الأجانب، وحسب رأيهم: كل واحد مسؤول عن نفسه فقط.

لم يكن مخ أخي البطل حسين، صغيراً أبداً فلقد نفذ التحدي والتهديد الذي توعّد به فماذا فعل؟!

لقد حمل على أكتافه بقرة حلوب ثمّ ارتقى بها على جدار المنزل، ووضعها على سطح المنزل وهبط وهو يزفر بشكل رياضي من شدّة الثقل وأذكره حين قال لأهلي غاضباً:

- الآن أنزلوها إذا قدرتم.

تخيلوا معي بقرة تخور خائفة على سطح المنزل وكأنها المخلوقة تستصرخ الضمائر الحية كي ينقذوها، يا للفظاعة، نحن مسلمون والله أنزل أكبر سور القرآن باسم البقرة، أليس كذلك؟.

أذكر أحد العمّال الزراعيين قال مندهشاً:

- هذه البقرة المسكينة لا يستطيع أحد إنزالها، ولو باستخدام رافعة. ما هي الرافعة؟!.

كل سكان بلدتنا الكبيرة تدافعوا لرؤية هذا الحدث العظيم، فهم لأوّل مرّة يرون بقرة فوق سطح منزل بلا درجٍ ولا سلّمٍ.. فماذا تصنع فوق السطوح؟

بل من رفعها ووضعها هناك..؟ وتلك المعجزة..

هناك من ضحك حتى استلقى على ظهره، وهناك من نظر متألماً لحال البقرة المنكوبة والبعض وقف

مخطوف البصر وهو يفكر حائراً! كيف حصل هذا؟ كان الحدث عظيماً، واشتد الهرج في مزرعتنا كسوق مزدحم.

كنت طفلاً صغيراً ولا أدري كيف انتشر الخبر وتناقلته وكالات الأنباء في بلدتنا الكبيرة، أخي البطل حسين يريد المشاركة بالبطولة الآسيوية لكمال الأجسام أو رفع الأثقال ويريد جمع المبلغ اللازم للسفر والمشاركة بالبطولة.

حضر أعيان البلدة الكبيرة بصحبة عدد من (المخاتير)، فتفاعلوا مع المشهد الغريب، وتعرّفوا على أصل المشكلة ثم تشاوروا، وأخيراً قرروا تقديم المساعدة له، فهو لا يطلب شيئاً لنفسه، بل لمصلحة الجميع.

تم جمع المبلغ اللازم لأخي البطل حسين، (حسينا)، وسُلم إليه بما يزيد عن حاجته وأذكر قول أحد الأعيان:

- لا نريد أن نفهم إلا شيئاً واحداً، وهو أن ترنا كيف تنزل هذه البقرة من على سطح المنزل..!.

أذكر إجابة أخي البطل حسين حين قال:

- سأنزلها بسهولة، من على السطح.. هل تحسبونني سأنزّلها من السّماء..؟!

رأيته يصعد إلى السطح بخفة ولا أدري بماذا دمدم، ثم حمل البقرة وأنزلها أمام أعين الجمهور المشدوهة، ولم يصب بأيّ فتقٍ أو تمزّقٍ في عرق..

سمعت بعضهم يقول:

- يا لطيف.. ما أقواه!..

سافر أخي مودعاً بحفاوةٍ من بلدتنا الكبيرة نحو مراكز عملاقة للقارة الآسيوية، واشترى الناس الصحف والمجلات ليتابعوا أخباره وهم قلّما يشترون الصحف، فبعضهم يقول إنهم رأوا اسمه من بين المشاركين بالبطولة، وبعضهم يقول إنّ بعض المجلات نشرت صوره، ولكنني لم أرها أبداً.

كنت أسمع أحاديث الناس عنه، ومنهم طبيب البلدة، وبعض المعلمين، وجل المثقفين في بلدتنا الكبيرة، وهم يقولون إنهم لم يروا اسم أخي البطل حسين بين أسماء الأبطال البارزين.

حين عاد من السفر لم يكن سعيداً، فكان يتهرب من الإجابة على أسئلة الناس المحددة بدقة:

- ماذا حققت من نتيجة يا بطل.. يا حسين..

كان يجيب بين الفينة والأخرى:

- اسألوا عني الصحف والمجلات.. سترون ذلك عن قريب.

ولأول مرة أعرف أن لأخي البطل مشجعون حقيقيون وراء غروره وشعوره بالقوة الفائقة حين سمعته يسرّ لهم، وكنت طفلاً صغيراً وليتني بقيت كذلك:

- يا أحباب، لقد كدت أفوز ببطولة آسيا، وربما ببطولة العالم لولا أن حضر بعض الأبطال من بلاد بعيدة، فمنهم من رفع فيلاً صغيراً ووضعه على سطح منزل أهله، ومنهم من رفع بعيراً، إنهم أقوياء، أقوياء أكثر مما تتصورون..

وبالنسبة لي أنا وأمي فإنّ أخي حسين سيظل هو البطل، بطل آسيا والعالم مهما كانت الظروف.



# الدنيا اشتعلت ناراً

قبل أن تغيب الشمس، كنت قد حللت لـ(ستيفان) والذي أدعوه محبة سطيف بعض المسائل في الهندسة الإقليدية، كان ستيفان تلميذاً نجيباً في المرحلة المتوسطة، وهو الوحيد لأمه صوفيا الكاثوليكية، المتصوفة حقاً، الأرملة المترهبة، التي هجرت كل ملذات الحياة، بعد أن مات زوجها العامل والذي كان يعمل في منجم للفحم، في ليلة شتائية ثلجية جمدت حياته حين لم يعد بسبب ثمالته العميقة، ووقوعه العنيف من على أحد السلالم المعدنية المتحركة على الدوام، وذلك في العاصمة المجرية بودابست.

كانت أشعة الشمس مضيئة في بودا، بينما بست توشح بالظلال، وانقسم نهر الدانوب الأزرق إلى بحيرتين فالضفة اليمنى لبودا تشع كالمرايا اللازوردية بينما الضفة اليسرى لـ(بست) مكفهرة بين الضياء والظلام،

حين خرجت مع ستيفان متجهين نحو بودا ، فلقد كلفته أمه أن يصطحبني معه إلى القمة ، حيث توجد هناك قلعة كبيرة ، وفي داخلها يوجد فرقة شعبية تعزف أنغاماً تراثية راقصة ، تذكر بالفولكلور الشعبي ، في مزيج شرقي وغربي ولاتيني وتتاري وتركي ، ألماني وسلا في وهناك ومع نشوة النبيذ الأبيض وجدت نفسي أرقص مع الراقصين بفرح ، إنه كرنفال من الألوان الزاهية والملابس التقليدية في جو من المرح والضحكات الطفولية ، حتى أنني نسيت مظلتي هناك ، وأحياناً كان ستيفان يذكرني بذلك وهو يكرر القول:

- أنت تجيد الرقص يا أستاذ ، ولكننا نسينا المظلة.

وأرد عليه معاتباً : يا بني ، لقد كنت منتشياً من الخمر ، أما أنت فما الذي استفدناه من صحوتك؟.. لولا المطر لما كنت تتذكر شيئاً.

ويقول: حسناً ضاعت ، لقد كان المطر منعشاً.

ثم أبدأ توصيته بأن لا يداعب الكلاب التي تهاجمنا أثناء العودة للمنزل ، حيث تركض نحوه كلاب المنازل ، وحين يقرفص على الأرض تمد له أعناقها ليداعبها ،

كصديق حميم لها، بينما كنت أحسبها ستنهش من لحومنا، لشراسة هجومها، أو من شدة الشوق؟ لقد كنت سعيداً بالحياة مع هذه الأسرة الصغيرة، وأيام الدراسة تنقضي إسراعاً، ولا يوجد سوى ناقوس واحد حزين كان يرافقني هو العودة في ساعة متأخرة من الليل، عادة، ومقدار حرصي على أن لا يصدر عني أي صوت أو حركة، يقلق راحة النائمين.

كانت الراهبة صوفي، قد صعدت فوق طاولة لتعلق ستائر غسلتها بعناية، فوقعت، وانكسرت يدها اليمنى، ولم تتماثل للشفاء بعد، حين رن جرس الهاتف:

- أهلا أبو جاسم...

ـ أرجوك اسمعني جيداً، أنت مسافر غداً للشرق؟ أرجوك أن تقابلني في فندق الأكواريوم فلي عندك طلب خاص، أنتظرك.

في النادي الليلي جلسنا، حين قدمني لأستاذة الفلكلور والتراث الشعبي قائلاً:

- ستكون رفيقتك في السفر إلى الشرق، ولا أدري إن كنتما ستعودان معاً؟.

- سأمكث هناك أسبوعاً واحداً.

- اتفقنا، إنها صدفة جميلة، ولكن أتعرف ما هو المطلوب منك؟.

- ما يطلبه السائح.؟!

- نعم ولا، فقط أريدك أن تريها الأزياء الريفية، وتعرفها عن كثب بالعادات والتقاليد وكل ما يتعلق بالثقافة الشعبية، فهذا من اختصاص الأستاذة كاترين، والبقية ستأتي فيما بعد.

قلت: أنا أريد أن أفهم شيئاً واحداً، هل تجيد الأستاذة كاترين الرقص؟.

ضحكت، وسألت إن كنت أريد البرهان، وشدتني من يدي نحو المرقص، ولم يخلصني هتافي، بأنني لا أفقه من الرقص حرفاً واحداً، وفوجئت، فلم تكن مدهشة وخبيرة وحسب، ولكنها كانت محل إعجاب واحترام الجميع فقد كانت معروفة بمواهبها الفنية.

وصلنا للبلدة الكبيرة، وحين ينتقل المرء من الغرب للشرق مسافة بعيدة، خلال ساعات، ينتابه الشعور المقلق

والمفرح في نفس التيار، فالمكان ليس واحداً، والزمن ليس واحداً، في عالم من الأكيد أنه واحد.

من عزيمة على الغداء، ومن سهرة لأخرى، كانت الأستاذة تحدثني عن أشياء كثيرة تستحق الاهتمام، فكم صورت وكم كتبت من ملاحظات، ولم نكن نمتلك الوقت الكافي للحديث عنها.

وقبل عودتنا بيوم واحد، دعينا لحضور عرس في القرية، فقلت لها لقد وقعنا على صيد ثمين، فالليلة سترين عرساً على الطبيعة مباشرة، فاستعدي، فهناك ستهاجمك دفعة واحدة التقاليد والعادات والملابس والرقص والغناء والموسيقى، وقد ترقصين أو تدبكين معهم، فامتلأ صدرها فرحاً.

حين وصلنا للعرس ليلاً، عبر الظلام، إلا من بقعة العرس المضاءة بما فيه الكفاية، وكان الحفل في بدايته، وكنا من بين الجالسين القلائل، فالدبكة معقودة، الطبل يلعلع والزمارة تئن، والربابة تصدح، الأيادي متشابكة في حلقة كبيرة نساء ورجالاً، في حلل ريفية زاهية، ومع خبط الأقدام على التراب المرشوش

بالماء، فقد كانت زوبعة عالية من الغبار الثقيل تتصاعد للأعلى، والتنفس ثقيل، والمغني في وسط الساحة يرقص حيناً ويرقِّص حيناً آخر على الأنغام المطربة، (الولد بالعسكرية، هو يبعثها رسائل وهي تبعث له الهبرية)، الهبرية هنا المنديل، بين العصر والمغرب مرقت سيارة بيضاء، عرفت من نمرتها، سيارة المحبوب.

كانت الأستاذة الهنغارية منهمكة بالتصوير، وتسجيل الأصوات، والحركات، وأنواع الأزياء والوشم، وكان كل شيء يهتز ويتراقص كالأضواء المعلقة على أغصان الأشجار المقطوعة حديثاً والمغروسة بالتراب، لأن الأسلاك كانت تهتز من الهواء وخبط الأرجل، وهي حين تخفت حيناً في لحظات العتابا والموليا، فإنه سرعان ما يشتد الراقصين طرباً وتعلو أصواتهم مع (شوباش لفلان، وألف تحية لفلان، ومن وإلى...)، وترتفع الزغاريد والهلاهل بقوة فظيعة، لتزيد الراقصين حماسة، ما يهمني في هذه الحفلة الصاخبة، أن الأستاذة لا تطالبني بترجمة كل ما نسمعه، فهذا ما سيحدث فيما بعد، بعد أن نعود لهنغاريا، وسأترك الأمر لـ(أبو جاسم) فهو الخبير بريف البلدة الكبيرة.

كنت جالساً أو غاطساً على كنبة اهترأت (راصوراتها)، أراقب فتحة متهدمة في الجدار الجانبي للمنزل، وفجأة انطلقت أصوات العيارات النارية، مدوية ومع الهلاهيل والصراخ، انفجرت خيوط الكهرباء، واشتعلت النيران فكونت حريقاً صغيراً، واندفع حشد كبير نحو الفتحة الوحيدة للجدار، ولكن أكثر ما أثار انتباهي ذلك الرجل الذي أمسك برداء زوجته وطرحها خلفا حتى وقعت، وانكشف شيء من عورتها:

كان يقول: يا روح ما بعدك روح.

كانت الفرصة مناسبة للعودة، قبل أن يلتم شمل العرس ثانية، فانطلقنا بالسيارة بعد دقائق، وفي الطريق شاهدت أحدهم يركض بقوة، وعلى بعد أكثر من كيلومتر عن مكان العرس، فسايرته وهتفت به:

- إلى أين ياعبيان؟ لم تركض؟.

فرد بصعوبة: - الدنيا اشتعلت نار بالقرية، بالعرس، رصاص ونار وحريق.

قلت له ساخراً: الآن بينك وبين القرية كيلومتر يا رجل!.

أجاب: - حقك، فأنت لم تشاهد الدنيا وهي تشتعل نار.

قلت له معنفاً: (يوال) ارجع للقرية، الإنسان لا يهرب من البركان أو الطوفان والزلزال كل هذه المسافة.

توقف عن العدو وعاد أدراجه، ولإشباع فضول الأستاذة الهنغارية المنشغلة بترتيب أدواتها، وكنزها الفلكلوري الثمين، شرحت لها نقطة هامة جداً، فبعض الناس بالريف يمارسون رياضة العدو الليلي الفلكلورية، وحين نخبرهم بوجود عرس بالقرية، فإنهم يضحون بكل شيء، لأنهم يفضلون حضور العرس ومشاهدة الفلكلور الشعبي بدلاً من ممارستهم لرياضتهم المفضلة.

لقد ظل (أبو جاسم) يضحك كثيراً، من حكاية القرية التي اشتعلت ناراً، وكلما التقينا في فندق الأكواريوم على ضفاف الدانوب الأزرق في بودابست، يلح على معرفة المزيد من التفاصيل.

# جحاش برازي

برازي المشهور صاحب الصيت العظيم، هو عمي، ألا يحق لي أن أفخر بعمي! الذي ارتبط اسمه بمثل شهير هو (جحاش برازي) ولا يمر يوم في بلدتنا الكبيرة دون أن يتردد مثله الشهير في عشرات البيوت أو أكثر، ولو طبقنا الأساليب الحديثة في سبر الآراء على سكان البلدة فمن المؤكد أننا سنجد المثل (مثل جحاش برازي) هو الأهم والأكثر استعمالاً في البيوت والحارات، وهو الأكثر شعبية حتى عند كبار الملاكين والمزارعين حيث يتلذذ معظم أرباب الأسر شامتين بأبنائهم ومستصغرين بقدراتهم على القيام بأعمال مفيدة مادياً، فجلد الأولاد بسياط الكلام هي عادة محببة عند الكبار.

- أنتم أيها الأولاد مثل جحاش برازي.

وبالمناسبة فإن برازي هو عمي ومن واجبي أن أقدم لكم بعضاً من سماته الفاخرة التي تجعلني أعتز به من بين سائر الناس، لأن الدخول في قائمة المشهورين من الأمور الصعبة المنال ولا يقدر أي كان هكذا المرور بدون إمكانيات مبدعة.

عمي برازي يشبه إلى حد ما وزير نقل في البلدة الكبيرة فلديه ما يزيد عن عشرة جحاش، وهذه ثروة عظيمة ولولاها ما اشتغلت الطاحونة الكبيرة في البلدة. صحيح أنها تشبه في مظهرها الخارجي خرابة ولكنها في الداخل مصنع وهي وحيدة والسكان كثيرون ولذلك فالطاحونة لا تتوقف عن العمل ليلاً نهاراً، لكي يستهلك الناس الخبز بشكل يومي إلا أثناء العُطِل وليس العُطَل فنحن في بلدتنا لا نعرف من العطلة إلا صلاة الجمعة.

عمي برازي قصير القامة جسمه مكور ورأسه مدور وقرعته لماعة وثوبه أبيض قصير تحت ركبته بشبر يحضن نعليه في زناره الذي هو حزام جلدي وحصالة نقود في نفس الوقت.

إنـه لا يحتـاج لنعليـه في الـتراب والوحـل والحصـى إلا حين يضطر أحياناً لانتعالهما عند وجود زجاج مكسر أو شظايا حديد، برادة أو مسامير.... أو مساطب إسمنتية تكون لافحة كالجمر من حر الصيف أو كالجليد من برد الشتاء، أما الثوب الأبيض القصير فهو لا يتبدل طالما لم يتقطع في حادث مع الجحاش أو يرثّ مع الزمن الطويل ونفس الأبيض يبقى أبيض سبحان الله أليس هذا من الأمور العجيبة!؟ كيف يبقى الثوب أبيض ولا يحتاج إلى غسيل! أحدهما حاول الإساءة إلى كرامة عمي بالقول.

- طبعاً البقع السوداء على ثوب عمك الأبيض لن تظهر أبداً لأنه يحمل أكياس الطحين الأبيض والطحين هو الذي يصبغ الثوب بل انظر إلى وجه عمك تجده كذلك أبيض حتى حواجبه بيضاء، وكل شيء فيه أبيض أبيض.

ماذا أقول لهذا الفيلسوف؟!.... ربما..! سأكتفي بذلك، إنني أخاف من الحوار مع هؤلاء الناس فربما يسيئون أكثر من ذلك ويقللون من هيبة عمي برازي، إنهم يتجاهلون مشكلة النقل من وإلى بلدتنا والدروب إلى

الطاحونة ليس لعمي برازي صاحب الجحاش العشرة أي ذنب فيها ولذلك يمل الناس من الانتظار فبعضهم يستغرق عدة أيام لنقل كيس طحين من بيته إلى الطاحونة، وتخيلوا أن أحدهم يريد إيصال كيس طحين إلى بيته، جاهزاً وعلى السريع، خلال يوم واحد علماً أن بيته يبعد عن الطاحونة مئات الأمتار وسط دروب مليئة بالقبب والمنحدرات والحفر، والجحش المجبر أحياناً من رجل واحدة أو رجلين يصعب عليه الإسراع لإيصال كيس الطحين في الموعد المناسب.

الجحاش في الحظيرة، معظمها مصاب أو معرض للكسر بين حين وآخر فالعناية والصيانة هي من الأعمال غير الهينة ولعلكم تحسبون مثل هذه المهام سهلة؟! يا حسرة..! حتى أن بعض الجحاش ينفلت زمامها وتشرد هاربة وهذه ليست المرة الوحيدة التي يفقد فيها عمي برازي جحشاً وإلى الأبد وخاصةً عندما لا يقوم بتحديد سواعدها بسلاسل الحديد.

كل عمل شاق لا بد أن تكون خسائره كبيرة بينما الناس لا يهمهم شيء سوى قضاء حاجاتهم بتسليم كيس

الدقيق واستلام كيس الطحين وكيفما كانت الظروف والأحوال، وبينما عمي برازي يركض من مكان لآخر بحثاً عن جحاش تصلح للنقل وأحياناً ـ وما أكثرها ـ لا يجد حتى جحشاً واحداً وطلبات الزبائن المتراكمة تلح عليه إلحاحاً فلا تجعل له مجالاً للراحة.

يا إلهي ما أصعب ما يقوم به عمي برازي حتى وقعت الكارثة في الأخير...... يا ويلاه من الأخير!! قام أحد الجحاش الشديدة المراس برفس عمي في خاصرته اليمنى، ركلة صك أقوى من مطرقة حداد البلدة الكبيرة وتمزق كبده ومات عمي برازي ميتة الأبطال مخلفاً لعائلتنا العريقة مثلاً عربياً شهيراً هو: (مثل جحاش برازي).

لقد رثاه جارنا رمضان الشعبان، رفيق دربه الطويل قائلاً:

- كان بطلاً لا يكل ولا يمل، كان (جحش شغل).

كما رثاه خالي جمعة الخميس بعد موته بسنوات قائلاً:

- لقد كان عمك صاحب المثل الشهير ينوي ختم حياته بالحج إلى بيت الله الحرام وإطلاق سراح (جحاشه) وارتداء ثوب أبيض طويل هذه المرة وبدون زنار لأنه سيبقى لابساً نعليه.

# كلب خالتي قطنه

يحرس خربة خالتي (قطنه) كلب رهيب، إنه من نوع كلب الراعي، فهو كلب ضخم الجثة، أشعث اللون والشراسة بادية عليه، أما منظره فيبعث الخوف والقشعريرة في النفس، كما أن لا أحد يتوقع ملاقاة وحش مثله، هنا في البلدة الكبيرة، فمثل هذا الكلب، عادة، يعيش في البراري ليحمي قطيعاً من الأغنام من الذئاب الضارية بالجزيرة أو الشامية، بيد أن خالتي قطنه ضعيفة ونحيفة فهي عجوز طاعنة بالسن، وبحاجة إلى عكاز قوي من خشب السنديان، وإلى كلب قوي وأمين ليحرس الخربة المهجورة.

خالتي (فضة) تقول عن كلب أختها بإعجاب:

- هذا الكلب فهمان، ولا ينقصه سوى أن يتكلم ليصير كانسان.

حوش خالتي (قطنه) خربة، من بقية آثار مهجورة، فالحوش عبارة عن مجموعة جدران كابية من الفخار الشاحب اللون، وطابوقها بارز كحروف الكتب القديمة المهملة، فهي ذات زينة قديمة، ولكنها ملقاة فوق بعضها البعض بإهمال، لقد كادت الرسوم الجميلة أن تتمحي، فقد تآكل الطين والجس، وأصبح من النادر أن تجد في حوائطه بقعة مليصة تشهد على عمرانه السابق، فمعظم الغرف بدون سقوف، وبعضها يتدلى منها الخوص والقش والحصير، وبقايا أعمدة متآكلة، وبما أن كل انهيار سيبقى على حاله، فلا أحد هنا ليزيحه سوى خالتي قطنه، فالبيت مهجور منذ سنوات وعقود، لأن أولاد خالتي (قطنة) الثلاثة هاجروا البلدة الكبيرة نحو السويد.

جدران الحوش الخارجية واطئة، بينما الداخلية عالية، وتخفي الممرات فيما بينها مفاجآت كثيرة، أهونها تقافز دجاجة، أو تفاخر ديك بعنترية فاضحة، وهو يقفز صياحاً فوق مزبلته، وكأن المكان صار خالياً من النسور والشاهين، فصار المكان خلوة للعقارب الصفر، وهي عقارب سامة، تحتل مكان أفاعي الكوبرا هنا في الخربة، فذيولها المستفزة والمستنفرة

علـى الفـراغ وسمهـا النـاقع كـل ذلـك يبعـث الخـوف والقشعريرة، وقد تنام حية في مكان مرتفع قليلاً مكان شباك تهالك خشبه، وخبا لونه فعاد بلون الحية والتراب، ولكـن أسـوء المفاجآت العربيد الأسـود الـذي يدمـدم، ويقـف منتصـباً ومتحـدياً، والـذي قـد يطـاردك بصـلف شديد، والويل مـن عضـة عربيـد، يـا لـه مـن حـوش يخـاف المرء من التجول فيه أثناء النهار؟!.

كلب خالتي قطنه هو الوحيد الذي يضفي بوحشيته وصرامته أماناً على الحوش، وعلى المكان الذي يوجد فيـه، إن كـان يعرفـك، وعلاقاتـك الدبلوماسـية معـه حسنة.

قد يخطئ أحد المارة، حين يتخيل الحوش المهجور خاوياً، ويشرع بالتبول على أسواره، فإنه ما يكاد يفعل ذلك، حتى يسمع زمجرة رهيبة، تجعله يفر فراراً مخزياً، مشمراً، ولا يكـاد أن يستر عورتـه، والسـلامة خير من عضة كلب ضخم الجثة، يتبعها الزرق بعشرات الإبر المسمارية الشكل.

كل يحمي نفسه، وكلب خالتي قطنه، يحمي الدجاجات والبيض، وحرمة المنزل من كل إهانة ممكنة، ولذلك لن تجد طفلاً واحداً يمتلك الشجاعة في ملاقاة كلب خالتي قطنه.

خالتي قطنه، هي الأكبر بين خالاتي، وزيارتها واجب، ولذلك حضرت خالتي (فضه) مع كنتها وحفيدها الأصغر ياسين، وهو الرضيع في مهده، على سريره الصغير المحمول فوق العربة، فلم يعترض طريقهم كلب خالتي قطنه، فقد تركهم يجتازون البوابة الحجرية الخارجية ويعبرون الممر بسلام، فالباب الداخلي وكان الوقت آذان العصر، وبعد العتبة ظهر أمامهم في سحنة غاضبة، وهو يهمهم ويدمدم فهم أضعف من أن يعوي عليهم، وكأنه يقول:

- أين أنتم ذاهبون؟! قفوا ولا تتحركوا.

لم يتوقفوا عن السير منشغلين بالحديث، وفجأة هجم الكلب، بسرعة كبيرة والتقط ياسين الرضيع من قماطه، ووقف يحمله كرهينة لديه، حتى لا يتقدم أحد منهم خطوة واحدة نحو الغرفة الداخلية، كتمت الكنة

خوفها وندت عنها صرخة أمومة مرتعبة على صغيرها، ولم يتحرك أحد، وبعد لحظة من وقوفهم مذهولين ومتحجرين كالأصنام، وأنفاسهم مكتومة، تشجعت خالتي فضه، وصارت تحدث الكلب بجدية وحرص قائلة:

- اسمع يا وال، (ليك) هذا ياسين أخوك، و(آني) فضة أخت أمك قطنه، والله إذا ما تركته وأخليت سبيله، فسأخبر أختي، وستضربك بالنعال، يا كلب ابن الكلب، يا (لله يوال).. أنت (منكلب، وما عاد تستحي).

كان الكلب يصغي إليها جيداً، وينظر بحرص بالغ لعويناتها المدورة والمكورة، وهو مطمئن، وحين أحس بفراغ خالتي قطنه من الصلاة، أعاد ياسين إلى سريره، ومشى أمام الموكب نحو غرفة خالتي قطنه، واثقاً من نفسه كعادته، وحين سمع صوت خالتي فضه وهي تشتكي منه، توارى داخل الحوش حتى لا تراه خالتي قطنه فقد أيقن أن خالتي فضه ستسبب له الضرب بالنعال، وكان يسمع من بعيد، الوعيد والتهديد:

- (يــا وال، يــا (مكلــوب)، واللّه... ســوف أكســر راسك بالعكاز.. لا تريني خلقتك يا كلب يا حقير.

# حمام والكلب

هل كان(حمام) أستاذاً للغة العربية؟ من يدري؟ لكن ثمة من يقول إنه كان قد تخرج ذات يوم من الجامع الأزهر، ربما، فهو يعمل حالياً كأستاذ للغة العربية بإحدى مدن الجزائر النائية، في إحدى ثانويات التعليم الأصلي، التابعة لوزارة الأوقاف، وحيث يكون التعليم أصلياً، فلن يكون هناك فرق يذكر، بين الدين الإسلامي واللغة العربية، فتصير القداسة كأردية تتضاعف بسخاء، فضفاضة تبعث في النفوس الشعور بنعومة البال، ورخاء الحال، وهذا ما يحس به الناظر إلى الشيخ حمام، وقد ربط رأسه بلفافة لها أول وليس لها آخر، لفافة نسيج عقدت حول رأسه وبشكل معقد، وهي من نوع (ثلاث وثلاثون لفة)، التي ترمز من الناحية التاريخية للتصوف بالجزائر وقد لا تكون هي بالضبط الـ(ترونت تروا تور بالفرنسية)، فالبيرة هنا تسمى (٣٣)،

وهـي ليسـت مـن بـر اللّه، بـل مـن شـعير وأخـوات خمـرة العنـب، ربمـا كـان ذلـك أقـدم بكـثير، قـدم العهـد الأمـازيغي الغـابر، بينمـا حمـام لقـب حـديث أطلقـه عليـه أساتذة تخرجوا من جامعة القاهرة.

كان (حمام) مسربلاً بالبياض، من رأسه المكور، وحتى كرشه البرميلية الواسعة، والتي لن يكون بمقدور الألبسة الحديثة الإحاطة بها، فمن اللائق أن تكون مجرد دشداشة بيضاء، ولكنه حين يسوج في مشيته كالحمام، أوحين يرتدي عباءة سوداء، فإنه يتحول حقاً إلى طائر آخر، بطريق من بطاريق القطب الشمالي، أو الجنوبي، ولكنه حين يمشي يسوج كما الحمام، فهو حين يتمايل وينقل خطواته من مكان لآخر بشكل متباعد، تحس بهديل خطوه المتموج، ولكنني فوجئت به يصرخ مرتعباً، بصوت من يقع في بئر مظلمة! وهو يطلب النجدة:

- يا فرنساوي يا ابن الكلب، تعال خذ كلبك؟

كان حمام عالقاً، لا يستطيع التقدم أو التراجع، متجمداً من الخوف لا يقدر على القيام بأدنى حراك، لا

يفصله عن كلب الراعي غير مسافة قليلة، كان الكلب ينظر إليه كخنزير بري شرس، وهو ما أثار دهشته مستغرباً، فلا أحد يمكن له أن ينظر إليه بهذا الشكل، لقد تعود أن ينظر إليه جميع البشر بنظرة وقار، وأكثر من مجرد احترام، لأنه يؤدي دوراً خاصاً، يوقره البشر.

كان الكلب صادقاً مع نفسه، لا يعرف الكذب فهو يعرف حقيقة من هو الذي يحبه ومن الذي يكرهه، فها هو الآن ينظر بروح الشك والريبة نحو هذا المخلوق المزيف، فتارة ينظر إلى كرشه البرميلية، وتارة ينظر إلى رأسه المدور الصغير، وإلى عينيه الجاحظتين، المسمرتين وللحظات من الصراخ في المفاوضات بينهما، مرت عليهما لحظات انتظار بدا فيها مشهد تمثالين تدب فيهما حيوية ظاهرة.

حين لمحني حمام مبتسماً، هتف بغضب:

- أنت تضحك مني، اصرفه عني يا أخي.

لم يكن يجرؤ على تحريك يديه، بينما في الأحوال الاعتيادية، فكل جسمه يهتز، يتكلم بصوت مرتفع،

وحين يحدثني أقف على مسافة كافية منه، لأنك تشعر أنه سيلاطمك بدون قصد عند ما يتحدث.

سلمت على الكلب بالفرنسية، وداعبت رأسه، فحشرته برفق صوب الحائط، وأفسحت المجال لحمام كي يمر بأمان، وحين اطمأن قليلا، قال متعجباً:

- ما هذه العلاقة؟ أنتما صديقان حميمان على ما يبدو؟!.

- ألا تعجبك الصداقة مع الكلب؟

كان يبتعد ناقماً على الكلب حين قال:

- هذا ليس بكلب، هذا وحش حقيقي.

فهم الكلب ما قاله حمام، فعوى وهو يصدر همهمة تنم عن نفاذ صبره.

قلت: انتظرني يا حمام للحظات.

قرعت جرس الباب فخرجت سيدة فرنسية، وبعد التحية، دلف الكلب داخلاً، سألتها عن زوجها، فقالت إنه ذهب للسوق وسيعود بعد قليل ودعتني للدخول، فوعدتها بالعودة بعد قليل، وأثناء ذلك، كان حمام يحتج:

- قل لها أن تربط الكلب وأن لا يخرج ثانية لوحده، قل لهم أن لا يفلتوا الكلب في عمارة، أهذه هي الحضارة؟.

قلت لها هو جارنا يحثني للذهاب معه، وهو ينتظرني وسأعود قريباً.

قلت لحمام معاتباً: ماذا جرى لك يا جارنا العزيز، لماذا تكره كلبهم إلى الحد؟

قال مستاءاً: ما هذه الحالة، كلما صادفته، وغالباً مع أبيه الفرنساوي، إلا وحدجني بنظرة وحش، وهذه المرة كان لوحده فكيف سأتفاهم معه؟.

قلت له ببرود تام: سلم عليه بالفرنسية.

ضحك معلقاً: السلام بالفرنسية، ونحن لا نسلم حتى بالعربية؟

قلت له مستفزاً: يا رجل ألا تسلم على جارك؟ إنه مثلي ومثلك جميعاً نسكن في عمارة واحدة.

قال هازئاً: مثلك ربما أما مثلي فلا، أبداً.

قلت له مهدداً: في المرة القادمة لن أتدخل في الخلاف بينكما أبداً.

ضحك وراح يربت على كتفي بشكل ودي قائلاً:

- لا، اللّه يحفظك، لا تتركني لوحدي مع هذا الكلب الشرس.

قلت له: يا عزيزي، يا حمام، ماذا تخسر لو ألقيت عليه السلام!؟.

رد متعللاً: ولكنني لا أعرف الفرنسية يا جاري؟

قلت مبسطاً الأمر:

- إنها كلمة واحدة فقط، مرحبا، وتكون جواز مرور آمن، ما الذي ستخسره في حفظ كلمة واحدة؟.

وراح يردد معي مرحبا بالفرنسية، ولعدة مرات، ولكنه عاد ليسألني من جديد محتجاً:

- لماذا يسكن معنا في العمارة كلب شرس مثله؟ المباني للبشر أم للكلاب؟

قلت له شارحاً:

- أنت تعرف البروفيسور الفرنسي العجوز وزوجته، بدون أولاد، وهذا الكلب حارس لهما، وهو مثل ابن لهما، وهما يدللانه كثيراً.

كـان يهـز رأسـه موافقـًا، وكـأنـه قـد قبـل بـالأمر الواقع.

لم تتكـرر المشـكلة ثانيـة أبـداً، ولم تقـم بينهمـا أي صداقة، مـن مجـرد التحيـة، لأن حمـام كـان يعقـد حولـه علـى الـدوام مـؤتمرات صـحفية ليحـدث النـاس في الحـي والمدينـة، (دول بيـدلعوه وبيـأكلوه ويلبسـوه زي ابـنهم بـالزبط) ويحكـي عـن الكلـب المـدلل الـذي يعاملـه أهلـه كابن لهم، والـذي يفـرض علـى كـل الجـيران أن يسـلموا عليه بأدب كلما صادفوه داخل البناية، وكـأنـه جـار لنـا مثله مثل كل السكان، يضـحك كـثيراً، ويضـحك معـه كل من يسمعه.



# طفولة واثق بالله

حمادي طفل صغير ومدلل، وماهر في تمثيله، فهو يصر بشكل عنيد، على إبقاء مسرح بيت أهلي، ملعباً خاصا به، ففيه يستعرض كل مواهبه، وبالقوة، وإذا قبل أن يشاركه أحد، فإنه لن يسمح له بتاتاً، ما لم يقبل الشريك لعب دور ثانوي معه، فهو يسكن في بيت جده، وجدته، لكنه حسب رأيه ليس حفيداً، بل صاحب البيت كله، وقد يتصور أن من حقه أن يطردنا جميعاً، وهو يفعل ذلك على طريقته الخاصة، فهو يصنع لوحده زوبعة من الهرج والمرج.

ذات يوم، وقفت إلى جانبه وهو يستمتع بترديد الترنيمة التالية:

اللّه مالّله باللّه، آني ما أسمع، إلا كلام اللّه...

اللّه مالّله باللّه، آني ما أسمع، إلا كلام اللّه...

كـان يهتـز كالنـابض منتشـياً ، غـافلاً عمـا يـدور حوله، كمثل من يؤدي صلاة حقيقية حتى سـألته بهدوء تام، وبصوت خفيض، كي أختبر صدق ما يقوله، فمن المفترض، أنه لن يسمع صوتاً آخر غير صوت أو كلام اللّه.

- حمادي، هل تعرف اللّه؟.

أجاب بسرعة ضوء البرق:

- أنا لا أعرف اللّه، لكن (بس) أسمع كلام اللّه.

جربت أن أعلق عليه ساخراً فعلقت معه علقة لا خلاص منها.

- يبدو أنك حفظت الدرس جيداً؟

أجاب:- آني أحفظ دروسي، وأسمع كلام اللّه...

قلت له:- تذكر.... وأسمع كلام..؟.

قال اللّه ثانية، وأعدت علية الجملة الناقصة ليكملها، وخلال لحظات نسي ترنيمته، وراح يقول:

- وأسمع كلام أبي وأمي...

أضفت - و.....؟

رد سريعاً: خلاص.

قلت: وكلام..؟. أسرع هيا..

استدرك وهو يتذكر شيئاً هتف بصوت عال:

- وكلام معلمتي فهي تعلمني..

قلت محفزاً - وكلام......؟

رد مستاء بكل ثقة:

- لا أحد، خلاص، لم يبق أحد.

سألته - الآن هل أنت تسمعني؟

أجاب باستخفاف: أسمعك بس ما أطيعك؟

علقت عليه:

- يعني أنت ما تطيع المدير والرئيس والملك ؟!.

قال بكل برود: - لا.

لم يكلف نفسه عناء تأكيد (لا) عدة مرات، وراح يحملق بي، بعينين كبيرتين، وهما تضيئان كفانوسين، في وجه مدعبل كشمامة، فسخرت منه بقسوة لأنني رغبت بقرصه، قرصة تجعله يصرخ صراخاً يتعظ فيه

مرة واحدة، كي لا يعود للاستخفاف مرة أخرى، ولولا خوفي أن يكبر فجأة وأخسر طفولته الجميلة.

قلت له - هل تعلم؟ لو أن اللّه خلقك بطيخة حلوة؟ لمه؟ كي أأكلك..

رد منتصراً وعيناه تشعان ضياء:

- لأني أسمع كلام اللّه، فاللّه خلقني إنسان.. لأني أطيعه..

قمعته بقوة: - أنت جبان وتخاف من كل شيء؟

أجاب معانداً - لا، لا، أنا لا أخاف إلا من اللّه.

سألته مستنكراً: لماذا لا تخاف إلا من اللّه؟!.

أجاب بثقة وكأنه فيلسوف عصره:

- لأن اللّه عنده الجنة والنار، والـ (ما يسمع كلامه) يعذبه بالنار، والـ (يسمع كلامه يدخله بالجنة).

أعدت سؤاله وكلي انزعاج من يقينياته (الدغمائية).

- يعني أنت لا تخاف من المديرة ؟!.

قال: - لا.

قلت له بلهجة مهددة:

- ولكنها ستطردك من المدرسة، وستصير (حوام) بالدربات، صايع وتلعب ضايع...؟

بكل هدوء رد: المهم أن أدخل الجنة..

لنكبر الاستجواب ومع هذا (العنتري)، ولننظر إلى أين نصل!.

سألته كرة أخرى لأورطه أكثر فأكثر:

:- ألا تخاف من الرئيس أو الملك ؟

أجاب بالنفي بكل برود، قلت له مهدداً: ولكنهم سيسجنونك.

قال ثانية:- المهم أن أدخل الجنة.

علقت عليه ساخراً: - ستدخل الجنة ولكن بعد أن ينتفوا ريشك ويسلخوا جلدك ؟

قال واثقاً:

- إيه الله سوف يعذبهم.

نفذ صبري مع هذا الطفل النافش روحه كالطاووس الجميل، الذي سأسميه من الآن وصاعداً السيد: (واثق بالله)، ورحت أكيل غيضاً من فيض تهم:

- أنت متطرف.

- أنا(مو.. مططرف).

- أنت رافضي.

- أنا (مو.. أررفض).

- أنت إرهابي صغير.

رد علي بفظاعة هذه المرة: أنا شرطي كبير.

(تحسبها لعبة كومبيوتر يا عكروت ؟!).

لابد من قرصه قرصة مؤلمة، تجعله ينط من مكانه، لابد من أن أنتف ريشة من هذا الطائر الجميل منفوش الريش، الواثق بالله.

سؤال لو سمحت حمادي واثق بالله:

:- الحمام يلد أم يبيض؟.

أجاب على الفور بسرعة طائشة صاروخية، واسع الإطلاع.. ما شاء الله إنه حقاً يستحق التسمية، إنه واثق بالله.

- الدجاج والبط والحمام والعصافير.. و(الإوز) والنسر.. كلها تبيض.

أسأل: والخراف تبيض أم تلد؟

أجـاب: الخـراف والكـلاب والقطـط والحصـن والثعالب والذئب والنمر والأسد كلها تلد..

علـى الخـبير وقعـت، وكـأنـه يعـرف الـذئب والفهـد والأسد؟!.

أين رآهم؟ بالصور؟!.

- سيد واثق بالله والنمل؟ والجراثيم والفيروسات؟

صمت ساهما يفكر بطريقة طائر الحر عندما يقع بالشـبك، كـان حـائراً في متاهـة دروب فـأي الـدروب سيسلكها؟ كان يرفض الاستسلام، ولكنه وقع أخيراً.

- سيد واثق بالله، أبوك هل يلد أم يبيض؟

فكر ملياً ثم قال وهو يحك رأسه حائراً: يبيض.

قهقهت بضحكة أوضح من دمدمة الرعد، فتقلص وجهه وانكمش كالطائر المبتل بالماء، وشعر بالحرج والخجل، لأنه كان يعلم أن أمه هي ولدته، وبالتالي فلابد أن يكون أبوه هو الذي يبيض، فمازال عقله محصوراً في ثنائية (نعم، لا)، ولم يدرك بعد الثنائية (لا، لا)، أي لا هذا ولاذاك، أعطيته (خرجية) مصروف نقدي

فهو يستحق عطاء جزيلاً، وخلال ثوان ركض نحو الدكاكين ليشتري ما تشتهيه نفسه.

لقد أضحكني أخيراً وكثيراً، لعل جمال الطفولة من طرافة فكرهم الذي ينبغي أن ينمو وأن تحرص كل البشرية على أن يتم في دعة وسلام، فما أجمل الطفولة!.

# أحفاد بدون أجداد

كـان عمـي الحـاج عيسـى هـو الحـاكم الأوحـد في قريتنا الصغيرة، فهو يأمر وينهى، كيفما يشـاء، ولكـل شيخ كما نعلم طريقته الخاصة، فـلا أحد يفكـر بـالرد عليه، فالأمور التي جرت بكل بساطة، جعلت منـه خلفـاً لجدي، وشتان مـابين الثـرى والثريا، كيف صار؟ لسـت أدري سـوى أنـه بـالرغم عنـا جميعـاً صـار خلفـاً لجـدي بطريقة ما أو بـأخرى، ربما يكـون الأمـر قد أبـرم بليـل، ولكنه صار واضحاً بالنهار ولم يبق سـوى قبولـه كـأمر واقع بالفعل.

لا أحـد يبحـث عـن شـيء، لم نفتقـد شـيئاً، بيـد أن صـرامة عمـي في اسـتعمال سـلطته، بـدت غـير مفهومـة، فسلطته تنبسط عياناً حين يجتمع الناس، حتى وإن كان اللقـاء هـذه المـرة في خيمـة عـزاء، وكعادتـه حـين يجلس وسط الخيمة متكئاً على الوسائد العالية فـلا هـو متمدد

للنـوم ولا هـو معتـدل للجلـوس ففـي رأيـه أن علـى المـرء أن يتـكلم بشـكل معقـول، بينمـا مـن غـير المهـم سـؤاله عـن كيفيـة وأصـول الجلـوس في المناسـبات العامـة والخاصـة؟ فالصـواب عنـده هـو للكـلام ولـيس للجسـم المتهالـك، وتعريف الصواب عنده يتمثل في كل تدبير ينمي الثروة التي حاز عليها بطريقة التأميم وادعاء العمل، حين كنا جميعاً صغاراً، وحين وجدنا أنفسنا ورثة تقسيم ليس فيه عدالة، فقد حاز على معظم وسائل الإنتاج، ولم يترك لأخوته الأصغر منه سوى النزر اليسير، وصار بطلاً لكل المناسبات، فهو يلعب دور مؤسسة التأمين التي لا تدفع إلا عند حلول المصائب، ومن النادر أن يحرك ميزانية في الأفراح، وشعاره المقيت: اتعب كي تلعب.

كان عمي صامتاً طوال الوقت إلا إذا تكلم أحدنا، حينذاك يستنفر ليربط الأحصنة وراء العربة، ليظهر أمام الملأ أن صمته الطويل يخفي قوة من الحزم.

شبان القرية يبدؤون في بسط سُفَرْ الطعام، يتبادل الحاضرون مواقعهم ليجلسوا متقابلين في صفين متوازيين.

كـان ابنـه محمـد يعطـي أوامـره للشـبان: ضـع هـذا هنا... إلى هنا.. هناك

عـدل حـين رفـع صـوته الجهـوري ليلطـف مـن زحمـة الحركة وأصوات الطرقعة للملاعق والصحون.

- هل تدري يا حاج ؟

لم يكلف نفسه عناء الرد، طالما لا يوجد كلام له معنى حسب رأيه، فمن الخسارة أن يضيع صوته هباء.

- علي.....أي علي ؟.

— علينَا....

- ما به هذه المرة؟

رفع محمد نبرة صوته ليسمع الحاضرون منطق عمي الرزين:

— إنه في المستشفى الآن.

عمي جازماً وبكل برود:

- واللّه ما به كل شيء.

ابنه أحمد قال بلهجة مستنكرة، والجميع يسمع:

– هل يوجد أحد يذهب إلى المستشفى ولا يكون مريضاً..!؟

عمي يتكلم آمراً:

- قلت لكم واللّه ما به أي شيء.. فمن كثر أكله للحم بالعجين.. اللحم بالعجين هو مرضه..

وتدخل ابن عمي خلف، وهو لاعب كرة قدم، مربوع القامة ممتلئ الجسم ويعرف كيف يتسلل ومتى يسدد بقدمه الكرة نحو شباك المرمى:

- يقول الطبيب أن لديه أعراض احتشاء في العضلة القلبية.

يتململ عمي، فهو يرفض كل خبر ما لم يتوافق مع مزاجه الخاص، فهو لا يصدق إلا إذا رأى الشيء بعينيه، ومع ذلك فقد شعر بالاستياء، فقد عدل طريقة جلوسه للحظات وهو يرد على الاستفزاز:

– أنتم عناديون.. وها أنتم تقولون حشو..! حشو بطن؟ من أين؟ من حشو بطنه باللحم بالعجين، قولوا له أن يرحم نفسه من أكل اللحم بالعجين.

تبادل حشد المعزين نظرات الاستغراب، وحانت لحظة الطعام، فاعتدل عمي بكل روية، ليعلن لحظة انطلاق السباق نحو الأكل، ولكن محمد لم يتوقف عن التصعيد، ولكن هذه المرة:

– سالم لم يخرج من المستشفى بعد..!؟

بديهيات عمي لا تنتهي فقال باستهجان:

– من؟! سالمنا ؟!... إنه لا يشبع من الحلويات، يفطر حلويات ويتغذى حلويات ويتعشى حلويات..!

قال إبراهيم موضحاً: – إنه يعاني من ارتفاع الضغط السكري..

كل خيوط الأحاديث يقبض عمي الحاج عليها ولا يدعها تفلت من بين يديه أبداً وها هو يهتف متفاخراً لاكتشافه الأسباب الدقيقة:

:- ها هو البرهان.. من السكر! من أين يأتي السكر!؟ أليس من الحلويات؟ أربع وعشرين ساعة يأكل حلويات ماذا جرى لعقله؟ ليلاً نهاراً لا يتعب ولا يمل.!.

كانت أصوات المعارضة خافتة، توشوش لتختلط مع الجلبة التي يحدثها تناول الطعام،وكنت قد جلست بجوار جدي الشيخ،كان سمعه ثقيلاً ولكنني شرحت له ما يقوله عمي عن أحفاده بعد أن ضممت يديَّ حول أذنه على شكل بوق وهزَّ رأسه مبتسماً، وفي صرخة استعجاب:

- هو يقول هذا الشيء؟!

جدي هو رئيس الهيئة الدستورية في قريتنا الصغيرة وقد تعطل دورها مع شيخوخته، وسمعه الثقيل وقد كف منذ زمن بعيد عن التدخل لحماية الحريات العامة لأحفاده، فتوقف الجميع مندهشا من ثورة جدي وصرخته رغم شيخوخته: أنت تقول هذا الكلام (يوال جاسم)؟ أنسيت نفسك؟ لم أرَ أحداً أبداً في مثل شراهتك، أنت كالبئر تبلع ولا تكف عن طلب المزيد، كل من هنا يتكلم وأنت تسكت بالمرة.

ساد المكان صمت، فالجميع يصغي السمع لجدي، وهو يجهد نفسه في رفع صوته مستنكراً:

- يا وال جاسم، أنت أما كنت في الصباح الباكر تفطر بالمحشي، والظهر تتغذى باللحم مشوي.. حتى عند النوم.. كنت لا تنام إلا بعد أن تلقف ثريد البامياء... انظر إلى نفسك اليوم، وإلى حالتك كيف صرت.

كان عمي فيما مضى عملاقاً بحق، حتى قيل في وصفه، إنه يدخل من الباب بصعوبة، واليوم صار طويلاً نحيلاً معوج الرقبة، نظره خفيف لا يبصر على البعد، فكان جدي يقصد أن تحوله من شخص ضخم الجثة إلى هيكل طويل ونحيف كان سببه كثرة أكل اللحم..

سكت عمي قليلاً وعلى مضض حتى يتناساه جدي وهذا ما حدث حين التفت إلينا معلقاً ومستفزاً البعض وأنا في أول القائمة.

- أنتم فارغون من الأشغال..ابحثوا عن أعمال تنفعكم خير لكم من المعارضة على الفراغ.

إسماعيل – فارغو أشغال نعم.... بما ذا نشتغل إذا لم تكن هناك أشغال؟

عمي – الذي يريد عمل شيء والله لا أحد يمنعه.

إبراهيم – يا عمي لم تتركونا (نشتغل) شيئاً،

فالقوانين.... قوانينكم يا عمي لا تترك أحداً يعمل شيئاً، وكأننا نعيش حياة عسكرية لا تنتهي أبداً.

خليل- حين لا يدعوننا نشتغل فهم كمن يدعونا لأن نشتغل بهم.

عمي متوعداً: - اليوم كلوا وأشربوا وغداً سنرى ما هي أخرتكم؟.

كانت الابتسامات الخفية التي تظهر على وجوهنا، والتعليقات الساخرة التي نطلقها، تهز كيانه هزاً، فأخباره تصلنا من جلسائه الخاصين، ويعلن أنه لن يدفع لأي أحد منا إذا لم يقتنع.

كان لنا جدة تعطف علينا جميعاً، ولكل منا معها مواقف وحكايات، وبموتها حل عهد جديد، حاول جدي أن يحفظ الروابط فيما بيننا متينة، لعدة سنوات وهو يمتطي صهوة فرسه العربي الأصيل، فيظهر أمامنا روح الفروسية والشجاعة التي يتميز بها، ولكن فرسه نفقت ذات يوم، فاعتزل القيادة، وبدا عليه الهرم والشيخوخة، فلم يعد يتدخل فقد صار مثلنا ينظر بعينيه يرى الأشياء تجري من حولنا ولكنه لا يفهم منها شيئاً.

# موت الطفولة والديمقراطية؟

شهر تموز يغلي ويفور، حيث لا فرق بينه وبين اللهيب المتصاعد عن التنور، فلا تسأل عن البرد أبداً، فمن أين يأتي البرد؟ إنه لن يأتي مطلقا وبالقرب منك، في غرفة من غرف المنزل، ثمة (فخيرية) تشبه الموقد أو التنور، حيث يشتعل هناك قرم من الحطب الصلب، فيحمر حديد (الصاج) من لهيب النار المتوقدة وهي تبعث بالشرر في كل الأنحاء، فالبيت هنا ليس سوى مصنع صغير لإنتاج الخبز.. خبز العائلة.. خبز تاريخ عتيق، سيظل عبر القرون كحرز مكين ومبارك يحمي الحياة، من قوارض الانقضاء والزوال، وبدونه سيكون هناك مجهول في برزخ يبعث أشعة للجوع في عفر التراب وعطش الصحراء.

الأرض التي نعيش عليها ليست جحيماً، فهي تجود علينا بخيرات كثيرة، لأن الفرات يغمرها بفيض عظيم، بأحلى أنواع البطيخ الشمام، في رائحته العذبة، وبأبهى الألوان، من الخضرة الداكنة الخارجية نحو القلب الشهد العسلي، الفائق الحلاوة، ومن ضرع النعجة الحليب كانوا يصنعون لطفولتنا جبنه مملحة، فما أكثر الملح، ومن ملاحات الفرات حيث الأرض تنز من شدة الري، ليكتمل الغذاء، وتنمو نبتة الإنسان، في أقسى ظروف العيش من الزمان والمكان.

نحن في الصيف، ففي الصيف عندنا رائحة شواء الفخار والطابوق، ونحن نستمتع بذلك، فما أن يرش قليل من الماء، حتى ترى وتشم رائحة الاحتراق، وتسمع صوت الشواء، فالأرض تحترق، ولكنها مع الماء، تتمرخ فرحة بعودة الروح إليها، وحين لا يمكن للكبار الجرأة حتى على المشي البطئ، في حر تموز اللاهب، كنا نلعب كرة القدم. الناس في فترة القائلة القاسية، يتناومون كالسمك في المقلاة، في الجهنم التموزية، حيث تغلق المدرسة أبوابها، وتغط في سبات عتيد، لتبدو أمام عيوننا كالأطلال، مشاهدها كالأبنية الأثرية المهجورة،

ولكـن ذكرياتهـا القريبـة مـن العهـد الشـتائي القـديم، تتهددنا على الدوام بعودة الحيـاة المقيتـة إليهـا مـن جديـد، ولكننا على ثقة تامة بأنها بعيدة وبعيدة.

قال الشاب الجدع، (بالجيم الثقيلة ما قبل القـاف)، وقد سميناه كذلك لأنـه كـان المدافع الشـرس عـن أولاد الحارة، من كل اعتداءات قـد تحصـل علينـا مـن عجيـان الحارات الأخرى.

- تبدون كالزلم.. (كالرجال)!.

حين انتبهنا إليه قال ضاحكا:

- لكن في الفيلم..

رد عليه صديقي قصي قائلاً:

- لا نحن كذلك بالصحيح..

قال مشجعاً -: يا ليت..

لم ينظر إلى أي منا، ولكنه التفت نحوي وأنا أطلـب منه أن يشرف على انتخاباتنا الديمقراطيـة المزعومـة، ومن أجـل أن نختـار رئيسـاً لفريـق حارتنـا، وهـو فريـق مـن الأطفـال الصـغار، مـن الأشـبال لكـرة القـدم، في حـين أصـر منافسـي المنسـحب خجـلاً علـى عـدم لـزوم الجولـة

الديمقراطية للانتخابات، مدعياً بأنني أستحق الرئاسة بدون انتخابات، وهو على حد علمه فلا أحد من أعضاء الفريق يمكن له أن يحتج على رئاستي للفريق، فرفضت عرضه السخي، وادعيت بأننا أبطال (زلم) كما كان يقول، وليس أبطال في فيلم، وكان قد أصر على رجائه، حين قلت له:

- ألم ترَ بعينك الانتخابات الديمقراطية تجري في كل النوادي لانتخاب رئيس، وكيف ينتخب أعضاء النادي الرئيس..

أجاب بكل بساطة: - إذا كان القاضي راضي فما دخل (علاقة) المفتي؟

قلت بصرامة:- لنجرِ انتخابات حسب الأصول، وليكن الجدع (أبو طافش) هو الحكم، ستكون الانتخابات مفيدة حتماً.

كان صديقي قصي مستاء، لم تعجبه الفكرة، لقد كان يهمه حقاً أن نلعب حقاً، كفريق منسجم، يربح في المباريات مع الأحياء الأخرى.

حين قال أبو طافش متحمساً:

:- هيا لنجر الانتخابات.. أحضروا الأوراق والأقلام، ولنبدأ..

سيتم الأمر خلال دقائق، ولن يكلفنا كثيراً، مجرد أوراق وأقلام مهملة طيلة عطلة الصيف، وما أهونها؟!.

قال أبو طافش: - أيها الفريق من يرشح نفسه؟

على الفور قال صديقي قصي: - المرشح هو أحمد.

- من ترشحون أيضا؟.

قلت: أنا أرشح قصي.

قال محتجاً وهو محمر من الخجل: - أنا لا أرشح..

قلت آمراً: بل سترشح..

قال أبو طافش: ألم أقل أنتم زلم ولكن بالفلم، مرشح واحد بدون منافس، لماذا الانتخاب أصلاً، سيكون هناك تعيين، ولن تكون هناك انتخابات ديمقراطية وسيكون الرئيس منقوص الشرعية.

همهم البعض، وأبو طافش يهدد وبعد قليل سينصرف، وأخذوا يراقبونني كيف سأتصرف، حتى

أقنعت صديقي قصي بقبول ترشيح نفسه، فأغلق باب الترشيح.

بدأ التشاور بإشراف أبو طافش، من أجل انتخابات نزيهة؟

قال أبو (طافش) شارحاً لأعضاء الفريق:

- بما أنكم في شهر الصيف، على المرشحين أن يختارا، أحد الرمزين التاليين: البطيخ الشمام، أو الدبشي (الجبس، الدلاع)..

في جلسة سرية مع منافسي قصي، بعيداً عن أطفال الحارة، اخترت على الفور البطيخ الشمام، بينما قال منافسي المكره على المنافسة، لا بل أنا البطيخ وأنت الجبس..

حين سألته لماذا؟ لماذا تعاند؟!!.

أجاب بود وأخوية:

- لأن من سيختار البطيخ هو الخاسر، فاسمع كلامي ولو لمرة واحدة.. أنا أعرف ما الذي يفضله غالبيتهم فلا تعاندني هذه المرة أرجوك.. لا يوجد غيرك

في الفريق من يفضل البطيخ الأصفر على الجبس الأخضر..

قلت له بتحد: لا يهم من سينجح؟ المهم أن تكون الانتخابات ديمقراطية.. الأمر جدي..

كانت نتائج فرز الأصوات مذهلة، فقد حصلت على صوتين فقط من بين العشرات، وبما أنني أعرف خط (ص)، ولكي أعرفه فقد وضع إشارة على ورقته لكي يؤكد لي صدقه، وتفاجأ كل الفريق بسوء اختياري للرمز المناسب!؟.

وكان ما كان، وتحولت إلى مستشار له، أعد القرارات بينما يعلنها صديقي كرئيس منتخب للفريق، كل ذلك كي نصير (زلم) رجال في الواقع، بدلا من زلم في فيلم، أو إلى كومبارس في الفيلم الديمقراطي الطفولي، واليوم لم نعد نعرف! بل قل نسينا، من هم الرجال؟ من هم الأطفال؟ وقد انقطعت الطفولة، وماتت قبل موت طفولتنا: الديمقراطية!.



# شيطان الخطابة

حدث ذلك حين رشحني الرفاق في الحزب لمهمة عظيمة، فقد بدوت أمامهم جهم المنظر، وكانوا قد خبروا صوتي، فوجدوه جهورياً، وعاطفياً يلهب الحماسة ويشرح القلوب الحبيسة، ويطلق الطيور من أقفاص صدورها، ويحرك آذان السامعين، أما عباراتي العفوية فقد كانت رعدية مزلزلة، يهتز من هولها المنبر، ولم أكتشف مقدار ورطتي، من زحلقة لحظة لعينة، وبعد فوات الأوان، حين قبلت تشريفهم، ومن ساعة سكر شديد ونشوة داهية، وراحت مشتقة مزاجي تتدهور كلما اقتربت لحظة الإعصار الثوري.

قيل لي لقد كلفناك بإلقاء خطاب وسيكون الخطاب تاريخياً، فالحدث هام، ينبغي أن يكون خطابك خارقاً حارقاً، وأن يدوي كالرعد، وأن يحرق كالبرق، فأطلق كل براكينك الثائرة، وأمواجك الهادرة.

إنه لابد من التدرب على تقوية الحافظة، وتمريخ الحبال الصوتية، لقد صارت عملية الاستعداد اللائق، هاجسا مقيتاً، وضربت فيروسات خطيرة شاشة نومي، فصرت لا أنام بعمق في البداية، ثم أصبح نومي متقطعاً، وبدأت الكوابيس الخفيفة ثم تلتها العيارات الثقيلة، وحين اشتدت فقد صرت أكره النوم، فقررت أن لا أنام بعد اليوم، فكان شعاري: لا نوم بعد اليوم.

بعد خسراني المبين لمتعة النوم صارت أحلام اليقظة تغازلني بقرب النجاح الباهر، في الوهلة الأولى، وفجأة فقدت بريقها، وتحولت إلى أحلام يقظة ممسوسة، لقد شعرت بالخوف واجتاحني الخطر، فقلت لنفسي:

(- لقد أكلت هواء، لقد أكلت وحلاً، لقد ورطت نفسك من غير داع... يا ويلاه.. يا ويلي..).

لم أعد أمتلك نفسي، فأنا منسحق، بين مطرقة كوابيس النوم، وسندان أحلام اليقظة، ففي أثناء لحظات التدريب الخطابي المفلق، أثناء وحدتي، (هاجمني هاجمتني؟ لست أدري؟).

المهم أن الهجوم وقع علي فجأة ومن حزمة فيروسات كومبيوترية غريبة، فهي تعاكسني بشكل مشاكس، فتظهر لي بعكس اتجاه نظري، أنظر للأعلى تظهر لي من الأسفل، أنظر يميناً تظهر شمالاً، أنظر أماماً تظهر خلفاً؟ ما هذا؟!. عجيب غريب؟.

ظاهرة صوتية معادية موغلة بالاختباء؟!.

حين أقول: أيها السيدات والسادة، يرد علي صوت معارض غريب

- كلكم فساده ؟

وحين أقول أيها المواطنون:

يرد الصوت الآلي: كلكم خراطون؟

حرت وعجزت وخفت منه كثيراً، سكت للحظات وأعدت المحاولة:

- أيتها السيدات أيها السادة..

علق قائلاً: حضارتنا من حضرات السيدات والسادة في العادة، وأصحاب الجلالة والفخامة والسيادة فوق العادة، في العادة اجترار، وفوق العادة انجرار؟.

حضارتنا إنسانية..، استوقفني بجلافة: انس النية وبت على سوء الطوية، وتأبط الشر دوماً، واشحذ لسانك على الدوام، سيفاً مجرداً بلا غمد..عرب وين ؟ طنبوره وين؟!. اون لاين ؟!.

قلت حضارتنا علومية وشددت النبرات، فاعترضني بانزعاج:

- من العلوم، (يجيب علوم ويودي علوم)، يستخبر من هنا لهيناك، ويشرع في كتابة تقارير عفريتية، بمن يكره أو يحب سيان، فهذا عائد لمشتقة المزاج، على كيف (كيفك)، فالمزاج لحظي، تقديم بلاغات كاذبة، والإدلاء بشهادات مزورة، المهم أن يقدح القلم القادم من نار جهنم ومن شررها المتطاير.

علمانية، قلتها مرتعداً!.

قال: على المنية، فالقتل سيكون جزاء من يحاول الإفتاء لحياته اليومية، وهو أعلم بشؤون دنياه، بدون أن يستخرج تقريراً مقيداً لإسناد فتواه، عن طريق الفرع الأمني الحزبي، والمختص بشؤون الرفاق المناضلين الذين تطوعوا بلبس ثوب الأئمة والعلماء، تحت رئاسة أحد

القــوارض، وتكبــدوا عنــاء حمــل اللحيــة الكثيفــة المزعجة، والطرابيش الكاريكاتورية، التي يصعب على المناضـل أن يتعـود عليهـا، لـولا قـوة الحميـة الحزبيـة في خدمة قضايا الكروش البرميلية، ومن ثم، أليس عسيراً عليه وهو المتخم من حفظ اسطوانات متكسرة؟ وخطب مدمجة بشكل عسير في قرص متهالك، هل تسير الأمور هكذا بدون إذن ولا كهنوت أو دستور؟!.

حين قلت استطراداً وحشواً: عقلية؟

اشتد زئير المكان من الظاهرة الصوتية، ولخيار عندي في أن أحتمل أو لا أحتمل.

عقلية: من عقل القطيع الأهوج غير المعقل، كحبال منسوجة بشكل مقيد ومعقد، والأهم عنكبوتيه بحيث لا يمكن لأي حشرة طائرة أن تطير مبتعدة عن الشباك، وقد يمكن لها أن تفلت ولكن بعد أن يتم امتصاص كل ذرة دم فيها، وانتظار أن تتجدد فيها الدماء؟.

حين قلت أصولية محافظة، كان التعليق أقرب للضحك والسخرية:

- أصولية بدون أصول ولا تفكير بالوصول، فالمهم هو بقاء الحال على ما هو عليه، حيث لا محال أبداً في بقاء الحال على ما هو عليه؟.

حين قلت: تاريخية، وقد أعجبني التناقض اللفظي؟.

جاءني الرد:- درخية، حفظيه، بصمية، لكل ما يضر ولا ينفع أبداً، وفيهم قيل (صم بكم عمي)، ومن قوم لا يكادون يفقهون حديثاً، بغضاء وجوههم مسودة من الغيظ الكظيم، وما خفي كان أشد فظاعة؟ وأشد مضاضة؟.

أريد أن أنام!.

- لا، لن تنام في وئام ورهام؟.

ما الذي يدفعني كي أهتف-: آلو.. آلو.. عفواً رفيق، إنني مريض وفي الموت راحة ويا ليتني أموت.. إنني أعتذر..

والآن هل يسمح لي بالنوم؟ بدون تعليق، خاطركم، وتصبحون على خير؟.

صمت...

# المعوقون

كان الأستاذ سعيد معقولاً للغاية، حين يقول إنه من الواجب على الإنسان أن يبحث عن الحياة الأفضل، وحسب رأيه فالإنسان وهو كائن راق، لا يمكنه أن يتكيف إلى ما لا نهاية مع ظروف الفقر والشقاء، ولذا يتوجب عليه أن يتملص من جاذبية البؤس العام التي تقبض على مجتمعنا بإحكام، والتسلل نحو وضع هنيء.

حين غادرت القاهرة متخرجاً من جامعة عين شمس ومن كلية العلوم، قسم الرياضيات، فقد تركته يكافح من أجل التخرج في السنة الأخيرة، فقد كان مضطرًا للجمع بين الدراسة والعمل، لأنه المعيل الوحيد لأمه الأرملة شبه المقعدة من آثار مرض الروماتيزم، لقد كان المرحوم والده والذي توفي ولم يتجاوز العقد الخامس عمراً، غريب الأطوار، استحكم به الحزن واليأس، إلى الدرجة التي استطاع من خلالها التحكم

بيـوم موتـه، وبالفعـل، فقـد أعلـن هـكـذا بـدون مقـدمات بأنه سيموت خلال أسبوع، ولـذلك فقـد خصـص مكـانـه في مقبرة العائلة، ولما انتهـى مـن إعـداد مستلزمات موتـه، أسـلم روحـه في نهايـة الأسـبوع، سـعيداً، فمـا هـي العلاقـة مع اسم الأستاذ سعيد ولـده الوحيـد؟!. وحيـث كـان الأب نفسـه وحيداً.

لم يكن من السـهل نسـيان مـا حـدث، ولـكـن حلـول ساعة الافتراق، أعادت من جديد موسيقى الآلات النفخية البدائيـة، الـتي تـزأر بلحـن موسـيقي حـزين تتعطـل فيـه الحواس مـن رهبتـه، وليجبرنـا وقتمـا يشـاء لتجريـد سـلاح النسيان، بل ويحتـاج لتحريكـه إلى قـوة أوديسـيوس لقتـل أعـداء الإنسـانية برعايـة إلاهيـة، ومـا أن نوشـك علـى النسيان، حتى تتردد، في تكـرار مرير، تحكـي قصـة أن نلتقي، ولكـن بشـرط أن نفترق.

قال سعيد محاولاً التشبث بتلابيب الزمن الهارب:

- لا تنسَ لقد وعدتني بزيارة طويلة بعد أن تستقر؟.

- لم تعد "سعيد"، الذي أعرفه، لم تعد كما كنـت حالماً بحياة أفضل!.

- نعم يا صديقي، هذه حقيقة.

- أين لفاحتك السوداء؟

- لفاحة سوداء وفي الصيف يا رجل؟!.

- هل تستطيع العيش بدون حجاب، ألم تقل لي إنك بدون اللفاحة السوداء التي تغطي نصف وجهك تشعر بالعري؟!.

- أتساءل يا صديقي إن كان الطوارق وهم أجدادي في العصور الغابرة، كانوا يتلثمون صيفاً وشتاء؟!.

- نعم يا صديقي هذا صحيح، وسيظلون كذلك، هناك احتمالان يا صديقي..

لم أكمل حين علق ساخراً:

- كأني بدأت العمل فور التخرج، ما هذا النشاط؟!.

فهللت فرحاً من سخريته:

- هل تعلم يا صديقي، كم كنت خائفاً من فقدانك لروح السخرية؟!. الاحتمال الأول فلسفي إرادوي، فهم يتحجبون ليكونوا مجرد رموز، من غير المهم معرفة تفاصيلها، فالرمز أبقى وأكثر خلوداً، والثاني لأن

الصحراء لم تخضر بعد، ولكي لا يجف المرء في الصحراء القاحلة ويبقى مخضراً، فلابد أن يتحجب، وكل تلك الظروف ما زالت قائمة ولم يتغير شيء.

قال سعيد مفاخراً:

- إذن، أجدادي هم الذين اكتشفوا الزراعة الدفيئة، والبيوت البلاستيكية؟

قلت لسعيد: هل تعلم يا سعيد؟ لقد وعدتك أن نلتقي، ولكن حدسي يقول لي إننا سنلتقي أثناء العمل، طويلاً، وفي بلد واحد؟!.

فقال متهكماً -: قل لي هل أنت آشوري أم فرعوني؟

فأجبته بنفس الأسلوب -: (أفريقيا هي هواي.. أفريقيا هي دواي..).

سنوات قليلة انقضت، كأيام معدودات، وكان لقاؤنا بالجزائر، وفي نفس مكان العمل، بل وفي مسكن مجاور، ولم يكن وحيداً هذه المرة، فقد جاء بصحبة عائلته الصغيرة، وهو يشع حيوية، متفائلاً بتحقيق حياة أفضل، ولكن لفاحته السوداء التي لم تعد تخفي نصف وجهه، أصبحت مسبلة بشكل متميز وأنيق.

- لِمَ تطاردني يا سعيد؟

- وراءك والزمن طويل، حتى لو غيرت العنوان.

- أي ريح طيبة أرسلتك إلينا؟

- لقد جئت هارباً من هباب العمل، هل يعقل أن يعمل الإنسان من الصباح وحتى آخر الليل!. يسمونه عمل إضافي!.

دفعة تدخل، وتخرج أخرى، بحيث يحس الإنسان أن العمل هو آخر الدنيا، ونهاية العالم!. شيء غير معقول!..

- والآن، ما لذي تنوي فعله؟

- كل عطلة عمل سأسافر فيها، سوف ألف حول العالم.. لا ابن بطوطة ولا ماجيلان، ولا غيره.

كانت سفرته الأولى نحو أسبانيا، وحين عاد منها مسروراً، يحدثني عن جمال البلاد ورقيها كلما التقينا، حتى أطلب منه الكف عن المبالغة في تصويرها، وحين قلت له: غدا إذا سافرت إلى ألمانيا، فماذا ستبقي لها في الوصف؟! فلم يقتنع، حين قال: عندما أسافر إلى ألمانيا فلكل حادث حديث.

كنا نجلس في المقهى على رصيف الشارع بجوار حديقة حين هبت عجاجة قوية، وقصفتنا بكمية معتبرة من الغبار، حتى لقد مضمضت فمي بالماء لأن الرمل صار ينطحن فوق أضراسي، بينما راح سعيد، يفرك عيونه من حرقة، ثم شرع يغسل نظارته الطبية.

ضحك قبل أن يعلق ساخراً:

- لقد نسيت أن أخبرك عن أهم جزء من سفرتي إلى أسبانيا.

قلت كفى يا سعيد، لم يبق شيء جميل إلا وضعته في أسبانيا، لم يعد لديك ما يثير.

- إلا هذه المرة، واسمعني حتى الأخير، عندما كنت في مدريد، أثارني جمال حديقة، فقررت التجول فيها، لا يخفى عليك قولنا الماء والخضرة والوجه الحسن، ولكنني هذه المرة أضيف ما رأيته، وسمعته، أي الصوت الحسن، تخيل فرقة سيمفونية تعزف منفردة، والجميع يستمتع على البعد، بدون أي حشد حولها، وكأن الفرقة جزء من تماثيل الحديقة أو طيورها، ولم يقترب منها سوى مشجعين اثنين، أنا وجحش، كان الجحش يرعى

مسروراً من العشب النقي كالسجاد، بل ويحرك ذيله مسروراً، من حين لآخر، وأنا مندهش فاغر فمي من هذا التواصل الوجداني والهارموني، لفرقة كأنها تعزف للسماء، وأعضاء الفرقة في ملابسهم الخاصة، وكأنهم من عالم آخر.

وصرخ بي مفتعلاً الغضب: ألا تسألني يا أخي وماذا بعد؟

فرددت عليه ببرود تام-: لقد أمرتني بالصمت، وأن لا أقاطعك، أم تراك همت مع الفرقة السيمفونية.

صاح بصوت تمثيلي - لا أنا لم أحسد أحداً في حياتي، ولكني حسدت الجحش على المكان الذي يعيش فيه.

ضحكت حقاً، وسألته وماذا بعد؟

أجاب: - لقد تمنيت نفسي جحشاً في أسبانيا.

ولكي يقطع الطريق علي قال، وسنرى ألمانيا التي تتحدث عنها بدون بلاغة، في العطلة القادمة.

فقلت له مستفزاً - سنرى ماذا ستتمنى المرة القادمة؟

قال واثقاً - سوف أعجبك.

في العطلة الثانية، سافر حقاً إلى ألنمسا، وهو يسأل بإلحاح، إن كنت أقبل شهادته عنها كما لو كانت محل ألمانيا، فأبديت موافقتي وحين عاد بعد شهر، كان قد تغير فيه شيء ما، ويهمني اكتشافه، فقد كان يركز حديثه هذه المرة عن الهجرة، لأنه سألني:ما رأيك بالهجرة إلى أمريكا؟.

علقت خائفاً - هكذا دفعة واحدة؟!. مازال أمامك زيارة بريطانيا و...

قال باقتضاب - الاختصار مفيد وستكون سنتي الثالثة هذه حاسمة، سأهاجر إلى غير رجعة، وحين استقر هناك ستلحقني مرغماً هذه المرة، وبدون نقاش، مفهوم؟. وراح يهدد ويتوعد.

كنا في حانة، نشرب خمراً (معسكرياً)، وهو خمر شهير مصنوع في مدينة معسكر الجزائرية، ومن أجود أنواع العنب، وقد سمينا الحانة (العاشق)، لأن أحد مرتاديها الدائمين على (الكاونتر)، والذي نصادفه في كل مرة، كان كهلاً وأنيقاً، فيه طول ونحافة، يشرب كثيراً، ولكنه محترم، ولا يخرج عن طوره، كان

يتميز بحساسية وجدانية عالية، ولكي يصنع الجو الذي يبحث عنه، فهو يقوم باستمرار بتقديم ضيافة على حسابه، من أجل ماذا؟. من أجل أن لا نحتج على أغنية (الراي) التي يؤديها الشاب حسني، بعد أن أدخل عليها موسيقى الجاز، لتمتزج التكنولوجيا الطازجة مع النفس القديمة المعتقة.

- (كاع النسا، اللي خلقهم ربي، ما يجوش كيما أنتي..)

ودوما يسألني سعيد :- ترجم لو سمحت.

للمرة الأخيرة أترجم لك من العربي إلى العربية، كل النساء اللواتي خلقهن الله، لسن كما أنت..

ويسأل ببرود تام - لماذا؟

حين أقول له تعال لنسأله.

يرد بنفس الطريقة - لا داعيَ لذلك.

دخل إلى الحانة أحد المعوقين، سلم بأدب تام، وجلس على كرسي طاولة مجاورة، وفجأة انتفض سعيد منتشياً، وهو يقول - لقد تذكرت، فلا تقاطعني أبداً، لأنني سأحدثك عن أظرف موقف مر بي في النمسا.

قلت ساخراً - في أسبانيا تمنيت نفسك جحشاً، وفي النمسا.. من يعلم؟ فضولي هو في معرفة ماذا بعد الجحش؟!.

- أثناء تجوالي في العاصمة (فيينا)، وفي أكثر من ساحة، رأيت عدداً من الأكشاك الزجاجية، على أسواق صغيرة، معروضة للإيجار، وأجورها معقولة للغاية، ولأنها تقع في أماكن جمهرة وازدحام، فمن المتوقع أن تكون مربحة جداً، وقلت في نفسي هذا أسرع طريق لمن يريد البحث عن الثروة.

دعيت إلى سهرة في بيت أحد أقاربي من جنسية نمساوية، وحين تعرفت إلى ضيفه، كان التعارف ساراً للغاية، تخيل، زميل مهنتنا، أستاذ رياضيات، لقد كانت الجمل القليلة التي حفظتها عن الألمانية غير كافية للتفاهم المشترك، وكان قريبي مترجماً يحب الإيجاز، ويكتفي بالخلاصة فقط، كان يهمني أن أعرف مشاكل ومشاغل أستاذ رياضيات من نفس مهنتنا، وكان قريبي يلح بالرد:

إنـه يقـول لـك-: لا توجـد مشـاكل، لمـاذا تلـح عليـه بالسؤال؟!.

خطـر ببـالي أن أغـير الطريقـة، فرجـوت قـريبي أن يترجم له حرفياً مـا يدور ببـالي، فوعدني بذلك، وكـان سـؤالي علـى النحـو التـالي: اسـأله كـم راتبـك الشـهري، فأجـاب، فوجدتـه يسـتطيع اسـتئجار أربعـة محـلات ممـا رأيته من أكشاك زجاجية، مكتبة دخـان، محـل زهـور، (تحفيات)، (سـاندويتش)علـى السـريع، مشـروبات سـاخنة وباردة، فلماذا لا يستأجر أحدها ليربح الكثير؟!.

عندما أتم قريبي ترجمـة نصيحتي المفصلة، فوجئـت بـه يضـحك بهسـتيريا عجيبـة، إنـه لم يضـحك أبـداً، لم يتعود على ذلك، ولذا فإنه لا يعرف حتى كيف يضحك!.

قلـت سـاخراً منـه -: لمـاذا لا تقـول إنـك أنـت الـذي لا يعرف كيف يسأل؟.

قال، كـان يضحك بعصبية، ومن حين لآخـر يقـول:- كم هذا لطيف، لطيف للغاية..

ولم يسـتقر، ويبـدأ بـالكلام الجـاد، وكـان قريـبي قد أحس بأهمية ما أقوله مـن كـلام سـاخر، ولـذلك راح

يلتزم بالترجمة الحرفية، وحين تحدث الأستاذ قائلا: لو اعتبرنا ما تقوله مسالة طريفة فإليك البرهان، في الراتب الذي أتقاضاه شهرياً امتيازات كثيرة، تبدأ من المسكن والسيارة وبدل العطلة الأسبوعية، والقيافة، والمأكل والمشرب، والكتب، والأدوات..، فيما يشبه التأمين الشامل، وكل ذلك بهدف التفرغ للتعليم، لتكوين الطلبة تكويناً علمياً يخدم الأمة النمساوية، ويحقق طموحاتها بحياة أفضل وأرقى، بينما تخلق الحكومة أعمالاً حرة في تلك الأكشاك التي رأيتها، للمتسربين من المدرسة بسبب الفشل التعليمي، وبشكل خاص للمعوقين، لتحريك حوافز الربح المادي عندهم، والاستفادة من طاقاتهم البشرية، فهل يرضيك يا زميلي أن أنافس هؤلاء الناس على فرصهم في الحياة الأفضل؟!. المفروض شيء والمطلوب شيء آخر من خارج نص المسألة.

تدخلت لئلا يصرخ بي قائلاً:

- بالله عليك يا سعيد، قل لي بما ذا عقب قريبك النمساوي؟.

قال كمن يشعر بالخيبة: تخيل أنه قال لي مندهشاً:

- يا سعيد هل تعلم؟ لقد مضى على وجودي بالنمسا عشرون عاماً، وللمرة الأولى أفهم مثل هذه الظاهرة؟!.

ضحكت، فراح يصطنع الغضب قائلاً: أنت تضحك علي، فقلت: لا أبداً، لقد أضحكني قريبك!.

سأل: كيف ذلك؟.

قلت: لأنه كان هو الآخر يفكر بنفس طريقتك، ولا عذر له في ذلك.

فضحك، بل صار يضحك من حين لآخر، وليورطني في حمى الضحك.

قال: لقد قال لي معجباً بكل جدية واحترام، أنت شخص غير عادي، فمن أين تأتي بهذه الأفكار الجهنمية؟!.

وحتى لا نزعج الآخرين في حانة العاشق، خرجنا نحاول التماسك، لنكمل الضحك في الهواء الطلق، لأن الضحك سيطول ويطول ولا ندري متى ستتوقف هذه الانفعالات؟.

حين سألته عن حكاية الهجرة، أجاب بكل يسر: لن أكون هناك أستاذاً، بل سأكون مهنيا، وهي هجرة مزدوجة من التدريس، ومن حياة البؤس والشقاء.

قلت ساخراً منه: ستعيش هناك كأجنبي معوق؟!.

رد: لا يهم، ربما كمثقف وطني ومعوق؟.

قلت: نحن المعوقون..

قال بحزن: لا تقل نحن، لسنا نحن بل هم وفقط هم.

# بلاد ليس فيها أذان؟

يا ليتني أموت في بلاد ولا أسمع فيها صوت أذان..

هذا ما كانت تردده خالتي بدرية، قبل خمسة عقود أو أكثر، وأذكر أني كنت ألمحها وهي تتحرك بتذمر وعصبية، وقت الفجر، حيث يسود الصمت، ويعم الظلام الحالك، إلا من بصيص ضياء الشمعة، شمعة آخر الليل البهيم، فيتوهج بعيوني لمعانها الساحر، حين تنعكس على المرايا المعلقة في كل أنحاء غرفتها العلوية، لا زلت أذكرها تقفز بخفة فوق درجات السلم، أشياء غريبة حقاً، فأثناء النهار، تقضي معظم وقتها تستظل تحت أشجار البرتقال والليمون، والرمان وتتجول تحت دوالي العنب، تحرس شجيرات الورد الجوري من شتى الألوان، تشرب القهوة ثم تنادي على من تشاء ليشاركها المتعة، متعة أن تضحك، بعد انقضاء الظلام، فالعصافير تزغرد، والدبابير تئز لأن النحلات تحوم وسط

ظلام الغار، بينما كان صوت ابن عباس يكشم عباءة الليل البهيم.

كم مرة روت لنا وهي تضحك من قلبها حكاية المؤذن الصغير عمر ابن الشيخ عباس، الذي كان طفلاً حين أرسلته أمه إلى الشيخ عباس والده، وكان قد امتطى صهوة المئذنة، لتسأله قبل أذان الظهر، ماذا نطبخ للغداء؟

كان قد أطلق الصيحة الأولى: اللّه أكبر..

حين جاءه السؤال من ابنه المؤذن العريق الذي سيسمع صوته عبر عشر مكبرات للصوت من بعيد وحتى لو كنت على سطح القمر لاحقاً، في عصر غزو الفضاء، فما كان من أبيه إلا أن يكمل صوت الأذان بالقول:

- بامياء يا رسول اللّه.. ومن ثم الصلاة والسلام عليك..

هذا الذي لن تغفره خالتي لهما أبداً..

الـزمن يهـرول راكضـاً ، وهـو وإن لم يكـن مطـارداً من أحد ، إلا أنه يجري لاهثاً بدون توقف، بحيـث لا يهـدأ من يجري معه إلا بانقطاع أنفاسه؟!.

العقـود الـتي مضـت تفصـلني عـن خـالتي، لم تــزل تـدمغني بطبعتهـا الطفوليـة ، كـنقش نـافر علـى حجـر ، يصـعب علـي محـوه، فحـين لا اسمـع صـوت أذان في بـلاد أجنبيـة كمـا يقـال، سـأنسـى خـالتي بشـكل مؤقـت، ولكـن حـين أحـل في بـلاد الأذان المعولمـة مـن طـراز جديـد حيث أن كل مؤذن يقف منتشياً أمـام عشـرات مكـبرات الصوت المنتشرة فوق أسطح العمارات، بحيث يكـون مـن حـق رجـال الفضـاء، أن يقولـوا إن مـا يـرى خـارج غـلاف الكرة الأرضية هو سـور الصـين العظيم، ومـا يسـمع عـن الأرض هـو صـوت المـؤذن الشـيخ ابـن عبـاس؟! فسـتبقى اللازمة الطفولية منعكسة على صفحة تصوري المحبـوك من زمن المعالج العقلي السري الأول.

الحمـد للّه علـى نعمـة العقـل، ومـن غـيره نحمـده علـى نعمة النسيان؟!.

هذا ما كان يردده جدي، بين حين وآخر، يردده بحرص ووضوح، وكأني به يريد تخليد نفسه من خلال الطبع والحفر النافر للوحة وجوده، لكي لا يكون مخطوطاً بشكل فاهٍ، بحيث يمكن محوه بسهولة، كما تفعل مساحات مدارس الطفولة، لخطوط الأقلام الرصاص.

كانت خالتي الأصغر فيما مضى، من جميع الأحياء الأموات حالياً، تنتظر لحظات الإعلان عن بدء صلاة الفجر، قبل انطلاق صوت المؤذن بوقت طويل، ولذلك فهي تعتبره على الدوام متأخراً في إطلاق صوته، حتى لأكاد أتذكر نبرات صوتها وهي تتكلم بانزعاج صريح:

- ياللا.. يا وال، ياللا ابن عباس، أذن، اجعر، خلصنا؟ الناس تريد أن تنام؟!.

كانت معركة خالتي معه، تبلغ الذروة، حين تسمعه، يردد في آذانه:

- الصلاة خير من النوم؟

تشرع حملتها النقدية الغاضبة وهي تقول:

- يـا وال ابـن عباس، أنـت تـؤذن وكـأني بـك نائمـاً، سـرح صوتك، أذّن جيداً..

الصلاة عبادة والنوم عبادة...

وحـين تبـدي رأيهـا، كـان مخـي الصـغير يلـتقط ويسجل بقوة منطقها:

- يـا وال ابـن عبـاس، إذا كـان (اليـبرق أحسـن مـن المجَـدرة والدولمـة أحسـن مـن الفاصـوليا)، هـل سـنطلع للمئذنة ونصرخ أواخر الليل، بهذه الحقيقـة؟ فهمنـا.. قلهـا مـرة واحـدة.. كـأني بـك مرغمـاً مـن سـلطان النـوم، بالصراخ مرات عديدة.. وأنت تفضل النوم على الصلاة..

كـان المـؤذن ابـن الشـيخ عبـاس، الموظـف الـديني في مسـجد جـدي، وحيـث أن الشـيخ عبـاس كـبير في السـن مثل جدي، فقد رأى أن مـن الضـروري أن يـريح نفسـه مـن عنـاء الأذان، لـذلك حفـظ ابـن الصـغير اسـطوانة الأذان المشروحة بصوته الطفولي الاستفزازي للغايـة، ولم يكـن جـدي يـرى في ذلـك مـا يسـتحق الاسـتهجان أو الـرفض، فالشـيخ عبـاس مسـن مثلـه، ومـن حقـه أن يرتـاح، وحـين

ينطلق الأذان من حنجرة صغير، فقد كان ذلك أدعى لارتياح جدي.

أن يبدأ النهار الجديد من صوت طفولة بريئة، تؤكد استمرار الحياة على نفس المنوال خلال الأجيال القادمة. بنفس الطريقة، وذات الإيقاع، بل ذات الحياة.

إنني لن أنسى تمنيات خالتي الهازئة وهي تقول:

- يا ليتني أموت في بلاد لا يسمع فيها صوت أذانك...

لكن مشكلة المؤذن الصغير، من مقاومة خالتي الصغرى في قبوله، وهو الصغير، الذي كما تتخيله يحفظ ويهرف بما لا يعرف، في إيقانية مستهجنة، كما يحتج الشخص الكبير على طريقة تلقين ببغاء لكلمات تسئ للذوق العام، وهو الطائر الذكي والبريء.

- يا وال يا عجي، ابن عباس، أراك طفشت الناس من الصلاة، كرهت الناس من دينها، روح نام أحسن لك، جاءك النوم، روح لأمك؟.

كل فجر مع كل أذان، من عصر (الغراما فون) الحاكي، فالاسطوانات، فالفيديو الشريط، فالراديو، وحتى بداية التلفزيون الأبيض والأسود، وحتى الموت،

تظل المناظرة فيما بينهما مفتوحة على الموت والحياة فالأبدية..

لقد اندرست قبور الأحبة المتنازعين، بل واكتظت من الزحام، ولم يبق إلا السلام، السلام على الأبدية، والسلام...

- ليتني أموت في بلاد لا أسمع فيها أذان أبناء وأحفاد عباس...

سأقرأ الفاتحة على روحك الطاهرة يا خالتي..

# لو كنت قرأت التاريخ

جدي فلاح عتيق، أصابه الشلل من شدة العمل، فلا تستمع أبداً إلى ما يقوله إنه يضع اللوم كله على ممرض البلدة فماذا تصنع الإبرة؟ لا شيء.. لا شيء أبداً إنها المرة الأولى التي تدخل الإبرة بين عضلاته.. وأي عضلات؟ لقد تحول إلى عضلة واحدة وهنا يختصر تاريخ العالم إلى مجرد إبرة.

لم يعد جدي يظهر على الملأ فقد ترك العمل مضطراً وكارهاً، اعتزل الظهور أمام الناس في القرية إلا نادراً، فكم كان يشق عليه أن يراه أحد متكئاً على عكازين يتنقل من مكان لآخر، في غرفته الكبيرة أشياء كثيرة تجعله مستقلاً عن الجميع.

كنا أطفالاً حين صارت الأسرة تجتمع سوية في الليل والنهار، وذلك أيام غادر جدي الحياة إلى العالم الآخر، كان عمي أبو حسين يردد من حين لآخر على مسامع أبي:

- أبو حسن ولا يهمك.. أنا أخوك الكبير.. طالما كنت على قيد الحياة فالثقيل عليك خفيف عليَّ، ولا تحزن ولا تخف أبداً.

عمي أبو حسين ببساطة، صار عميد الأسرة لم يعد هناك أحد يهتم بشؤون الأسرة سواه بعد أن انخرط أبي في مسلك الجيش مساعداً ولا أحد منا يعرف تفاصيل حياته في مدينة بعيدة، بينما ورث عمي عميد الأسرة الجديد كل أخلاق الفلاحة من أبيه، فهو لا يكل ولا يمل من الحرث والبذر والقطاف والجني، صحيح أن الأرض مجرد دونمات جبلية قليلة المساحة، ولكن مع وجود النبع، وحيوية عمي أبو حسين، فكل ما يتمناه المرء من الخضار والفاكهة، كما في موسم الزيتون، كل شيء من حولنا يضحك كربيع دائم، البقرات والدجاجات والمعزات، شحم ولحم..

ومن حين لآخر نسمع عمي أبو حسين يردد بأبوية لا ينضب معينها:

- كلوا يا أولاد، الخير كثير والدنيا بستان، والله يحفظ لنا هذا النبع.

أنا وحسين وخلال سنوات نقطع الطريق الجبلي من القرية إلى المدينة مشياً على الأقدام ثلاثة كيلومترات متواصلة لم ننفصل عن مقاعد الدراسة إلا حين فرقنا القسم العلمي عن القسم الأدبي والسنة الأخيرة لنا حلت ونحن نحضر البكالوريا.

حقيقةً كان حسين ابن عمي عمدة الأسرة، أشطر مني بكثير وفي المواد العلمية لا نظير له حتى في البلدة، موهوب حقاً، يحب العلوم ويدرس ليل نهار، كم تمنيت لو كان عندي الجزء القليل من حب الدراسة واقتربت أيام الامتحانات، واشتد التحضير لها.

لقد اكتشفت ببلاهة أنَّ خير طريقة للحفظ هي المسير مابين الحقول، وترديد المحفوظات ولذلك كنت محظوظاً برؤية عمي كثيراً.

وفي الصباح الباكر كان يراني منهمكاً بالحفظ فيصرخ بي مشجعاً:

- ابن أخي.. يا حسن.. شد.. زيد شد حيلك على الدراسة.

- أهلاً عمي.. حاضر يا عمي..

ويسألني عادة نفس السؤال:

- (شو عم تدرس يا ابني ؟).

وأجيب حقاً على السؤال وبكل صدق:

- أدرسُ التاريخ يا عمي.

وبكل روح طيبة يسألني:

- إن شاء اللّه (مو صعب ابني حسن؟)

وأرد تقديراً له:

- (لا .. مو صعب عمو.. بس التاريخ بدو حفظ كثير.. حفظ تواريخ)

ويشجعني عمي.... أنه يفهمني تماماً.

- (عمو.... بس تكون تحب التاريخ تحفظهُ من أوله لآخره).

لقد أحببت أن أشارك عمي في هم حفظ التاريخ، وبيان معناه وضرورته ولذلك رددت على مسامعه أكثر من مرة:

- طبعاً يا عمي، لقد قال نابليون: لا أحب أي علم كما أحب التاريخ)

التـاريخ يـا عمـي يزيـد في عمـر الإنسـان، فيكـبر الإنسان حتى يصير عمره آلاف السنين، التـاريخ هـو أنفـع العلوم.

يا إلهي كم يزدهي عمي أبو حسين ولكنـه لابَّد أن يسألني بأبويه:

- (كيفو خيك حسين؟ حلال عليك يا حسن.. كيف رأيت دراسته؟).

أجيب عليه على الدوام بصفة واضحة وقطعية:

- (والله يـا عمـي، أنـا لا أشـكل نقطـة في دراسـة حسين، حسين رجل علوم يا عمـي، لـذلك يقـرأ الليـل مـع النهار من الديك إلى الديك..).

- ( بلا والله يا حسن.)

مـا الفائـدة.. حـين خرجـت نتـائج البكـالوريا تفاجأنـا واندهشـنا حـين نجحـت ولم يـنجح ابـن عمـي أبـو حسـين عمدة الأسرة.

كان شيئاً لا أطيق احتماله أن أرى عمـي أبو حسـين بعـد هـذه التضـحيات الـتي لا تعـد ولا تحصـى، فرحـاً وحزيناً في آن معاً.

هكــذا شــاءت الظــروف كــان عمــي صــامتاً لا يتكلم، يهنئني من أعماق قلبه، في حين كان حسين مضطرباً مصفراً حيث كانت الدماء قد جفت في عروقه، وحين عانقه أبي عائداً من الجيش في إجازة خاصة، دمعت عيناه وبكى!.

لكن والدي صرخ به مع وجود عمي عميد الأسرة الساكت لا يتكلم؟

- (طز من الدراسة، ومن الشهادة، إذا لم تنجح هذه السنة ففي السنة القادمة، أنا متأكد يا حسين أنك انتحرت بالدراسة، الفرع العلمي صعب وأهدافك ليست سهلة، إذا لم تنجح هذه السنة فالسنة القادمة.. أو التي بعدها.. أين المشكلة؟).

وكانت المفاجأة، فعمي أبو حسين يتحدث بألم لأول مرة:

- (والله أنا في الفلاحة، أحرث الأرض كلها بدل الثور والبقرة، يا ابني يا حسين لو كنت قرأت التاريخ مثل ابن عمك حسن.. والله والله لكنت نجحت بالدراسة... فكلما سألتك ماذا تدرس؟ ترد علي:

رياضيات، تركت دراسة التاريخ، ولا مرة قلت لي بأنك تدرس التاريخ، التاريخ هو النجاح في الحياة التاريخ هو الذي يكبر عمر الإنسان).

حسين يلتزم الصمت التام، حزين ومحبط وأنا مذهول منتصر يمتلئ صدري بأوسمة لا معنى لها، لأنَّ ضميري يؤنبني!. إلا الضحكات.. ضحكات أبي، وعمي أبو حسين يُسُّر كثيراً حين يرى أخاه ضاحكاً.

- يا أخي... دراسة حسين علمية وليست أدبية.

عمي يسأل وهو يحاول نسيان خوفه الخفي:

- لماذا لم يدرس التاريخ مثل أخوه حسن؟ أريد أن أفهم!.

من بين الضحك... ضحك يعقب الضحك، كان أبي كرجال الإطفائية يناضل لإطفاء النيران القلبية المشتعلة لعمي أبو حسين عمدة الأسرة: حسين يا أخي يدرس الرياضيات والفيزياء، ولا علاقة لدراسته بالتاريخ.

قال عمي أبو حسين: إذن كيف سينجح؟!.

ضحك والدي... وكلما ضحك نثر الحب والأمان في قلب عمي أبو حسين، وحين راح والدي بصبر وأناة يشرح

لأخيه ما معنى العلوم والأدب بدون تاريخ، وأسمعه يقول له: والذي يدرس كمحامٍ ليس كالذي يدرس طبيباً، في السنة القادمة... انتظر الموسم القادم فقط، سيكون كلاهما في الجامعة يدرسان معاً الطب والقانون، وكان عمي أبو حسين قد انزاح عن صدره ثقل كابوس مريع.

حقاً، هذا ما حدث ففي السنة الثانية، كنا معاً بالجامعة، أنا أدرس القانون، وابن عمي حسين يدرس الطب وانقضت سنوات الدراسة الجامعية وعمي أبو حسين عميد الأسرة يرعانا سنة بعد سنة. وأنا اليوم رئيس محكمة البلدة وابن عمي طبيبها الناجح، الذي يضرب به المثل ومن حين لآخر يزورنا عمي ولا أنسى وصيته المعتادة:

- يا حسن.. يا حسين..انتبهوا للفقراء والمساكين.. العدل يا أولادي والمحبة.. ردوا بالكم على الناس.. لا تخلوا أحداً منهم يلعننا.

عاد والدي ذات يوم مكفهراً، حزيناً لم يضحك منذ مدة بعيدة، إنه ضائع... ضائع حقاً ما بين القرية والبلدة

والمدينة، لم يتكلم أبي حتى اجتمعنا جميعاً، كان أبي منزعجاً وناقماً على الحياة العسكرية، فانفلت غاضباً:

- العسكرية: نظام وانضباط. العسكرية أوامر.. نفذ ولا تعترض، راوح مكانك، مزاج هو الذي يحكم.. كل العسكريين أصبحوا في مراتب أعلى.. وماذا بعد؟ إلا أنا فقد بقيت أرواح في نفس المكان!؟.

جدية أبي تستحق الضحك منا جميعاً، فقد تضايق من صمتنا ونحن ننظر إليه واجمين، ولا ندري ماذا نقول له؟ وفجأة قال متوسلاً:

- قولوا شيئاً، شاركوني.. غريب أمركم!.

فقال عمي على حين غرة وهو يسخر من أبي:

-الله، والله لو كنت قرأت التاريخ لكنت نجحت من السنة الأولى.

هذه المرة ضحك عمي من أعماق قلبه، ضحك حتى سالت دموعه فرحاً ثم واصل سخريته معلقاً:

- اسمع يا أخي.. لا أنت علمي ولا أنت أدبي، ما الذي جعلك تقفز فوق القرية والبلدة؟.

لم يجد أبي ما يصنعه غير مجاراة عمي، لقد كان لعمي من البراءة ما يكفي لأمان بلد بأسره، وهو يقول:

- (لقد مضى عليك ربع قرن تزرع بالعسكرية، وزرعك جاء بدون موسم، وبدون حصاد؟!.)

كان منظر أبي كما لو كان قد فشل في امتحان البكالوريا.

ضحك أبي وهو الذي تعلم عادة العبوس، في السنوات الأخيرة، حين قال له عمي مستمتعاً بالضغط عليه من أجل أن يقبل بالأمر الواقع.

أريد أن أقول... فربما كان عمي لم يقرأ التاريخ وكتابه الوحيد هو الأرض والنبع والموسم، وفصول السنة ولكن أبي لو كان قرأه أو أجبر على قراءته، فإنه لم يفهمه.

# نخب اليانصيب

افرح معي يا صديقي، اشرب الكأس دفعة واحدة فورقة اليانصيب الرابحة أنقذتني من الشمس اللافحة والعجاج والبرد القارص، لقد قلت لي إن هذا قد لا يحدث ولو مرة واحدة في كل العمر... وحين ألحُّ عليك بالسؤال

- ما احتمال الربح.؟.

كنت تشيح عني كارهاً الإجابة ثم تقول:

- المهم أن لا تخسر والباقي: (هوف.. هوف.. أنا الأعمى لا أشوف).

رفعت معه الكأس واستوقفني هاتفاً بحماسة:

- نخبُ اليانصيب.. اشرب معي الكأس حتى آخر قطرة.

لم أتعود هذه الطريقة المتوحشة بالشرب، فالكأس المسكر يشرب عادة مهلاً، مهلاً حتى النشوة وحتى لا

يهجم علينا السكر السخيف، السكر الفاضح، بدون معنى وتنكشف عورة الإنسان وطبعه اللئيم المتخفي بدون داع، وكنت لا أخشى شيئاً مما يخافه غيري، هذا تحد أقبله، ولست أسرُّ شيئاً أخشاهُ ويخشاني، ومن أجل صدفة، صدفة فقط، جمعتني اللحظة بصديق عتيق، مكافح، فماذا يهم أن أسكر؟ أولا أسكر؟ وأن كان يطلب البشارة والفرح، فأنا أول من يفرح، لذلك لن أخيب دعوته فراح يصرخ آمراً:

- أيها النادل أحضر فوراً ودع كل شيء حالاً... تعال وإلا!.. وركض النادل من النظرة الحائرة لصاحب الحانة، فقد نظر إليه نظرة تستغرب تباطؤه، تحثه على السرعة في تلبية الطلبات المتلاحقة.

- اسمع... هل ترغب بخدمتنا نحن الاثنين أم ستجعلني مضطراً أرغم المعلم على طردك من هذا المكان، اعتبر الحانة خالية، فلا طاولة هنا غير طاولتنا، مفهوم؟.

ساءني غرور صديقي وشعرت بالخوف الخفي ولكن ما حدث فيما بعد، بعث في روحي بعضاً من الطمأنينة.

كانت نظرات المعلم الحازمة تقول له:

- افعل ما تؤمر به وإلا...

ولذلك راح يصغي لصديقي بائع اليانصيب:

- أولاً: قل لمعلمك التافه...

تعكر منظر وجهه، نظر إلى معلمه، وكان مبتسماً، وابتلع شتيمة معلمه مكرهاً، وهي غير موجهة له أصلاً، فراح يرمقه مصطنعاً ابتسامة بلهاء.

- قل له... أين أفضل زجاجة وسكي بالعالم.. إن لم تكن عنده فليحضرها لنا على الفور.. من الأرض، من السماء، لا يهم، وهذا من أجل ضيفي العزيز مفهوم؟.

هتفت محتجاً:

- لمه كل هذه التكلفة؟! صديقي..

فأشار إليَّ بيده واثقاً:

- يا صديقي، فقط انتظر، إنه مشروبك المفضل، أليس كذلك؟

هتف صاحب الحانة حين حضر الويسكي قائلاً بمرح:

- اشرب فهذا الويسكي معتق من عهد شكسبير.

قال صديقي متهكماً: نحن لا نعرف شكسبير، ولا الشيخ زبير، فإذا لم يرق لنا فستأتي بغيره، واستعد لذلك من الآن.

ثم هتف كأنه قد اشترى المحل بأسره:

ـ أيها النادل... أحضر للطاولة كل ما هو مفرحٌ، وطارد للحزن.... أريد لهذه الطاولة أن تضحك أكثر مما تتصور...

قال النادل: سأحاول..

وأجابه آمراً: تحاول؟! هذا أمرٌ.. افعله وإلاَّ... سيكون لمعلمك حسابٌ معي

قلت في نفسي: (يا إلهي هذا كثير)!.

قال صديقي آمراً النادل:

- اسمع وافهم.. أي شخص تراه.. أيّاً كان.. يقول لا.. أخبره أن حسابه مدفوع ولينصرف من غير تعليق.

لا أملك سوى الابتسامة على طاولة سلطانية، ممتلئة بما لذ وطاب ولكنه يجلب المزيد والمزيد، استغربت ثم قلت:

- ما بك يا صديقي؟ هل تريد أن تطمرنا بين المآكل؟!. وهل ستكون هذه الليلة هي الأخيرة في الحياة؟!. وفي كل الأحوال فلست هنا في موضع اختبار، فأنا أعرفك كريماً منذ الطفولة، وماذا بعد؟!. توقف قليلاً بل وحدثني ما حكاية الحفاوة البالغة هذه؟ أخبرني بسرعة ما الحكاية؟ حين خرجت من المنزل، كنت وحيداً، مستاءً ولا كأس خمر حولي، وقد جئت للحانة مصادفة ليس إلا.

أجاب ضاحكاً: هذا ما قصدته، بالضبط إنها الصدفة يا صديقي، ولكن أي صدفة، إنها الصدفة النادرة والجميلة، والتي طالما كنت تصفها بالمستحيلة!.

كان قد هتف فرحاً لمجرد دخولي، فأصغى إليه كل من في الحانة

- أي سماء أرسلتك إليّ؟!

علقت عليه بالقول:

- لعلك تقصد الأرض؟! لو كنت في السماء فلن تراني على الأرض لثانية!. وحتى لجزء من الثانية..

كان واقفاً، وقد وضع يده على رأسه حين هتف مرحباً:

- على رأسي وقلبي إن كانت السماء أو الأرض.. لقد جئت في الوقت المناسب، أهلاً بأستاذي العزيز.

لم يكن مخموراً، ولا منتشياً من السكر، وكأنه قد جاء لتوه، ولم أكن راغباً بالحلول عليه ضيفاً ثقيلاً، بل وتحميله تكلفة السهرة، فصديقي ومنذ الطفولة، مكافح ترك الدراسة، واشتغل ببيع أوراق اليانصيب، وكم من مرة سهرنا على طاولة واحدة، وكان التقشف يلازمنا، ولطالما تشاركنا نلملم النقود كي ندفع الحساب فما الذي حدث هذه المرة، ولم يمض زمن بعيد على لقائنا الأخير؟

لقد التقينا على طاولة واحدة، وكان صديقي بائع اليانصيب فضولياً أكثر من الحد يسألني بشراهة:

- ما هو احتمال أن يربح شاري بطاقة اليانصيب.

لقد نسي حتماً ضحكاتي حين كنت أقول له:

- اليانصيب يا صديقي.. فضاء احتمال والربح فيه بعيد.. لو حدث فإنه يحدث مرة واحدة بالعمر كله وبعدها لن تستعاد أيامنا بالخليج وليالينا.... كان كله انتباه وفراسة مع ذلك كان يسأل، بل ويطلب المزيد من الشرح.

- عليك أن تشتري ٢٠٠,٠٠٠ بطاقة لتربح.

ويسألني بائع اليانصيب بشراهة:

- وماذا بعد ؟

- ادفع ٣٠ مليون وأضمن لك ربح ٢٠ مليون...

قال صديقي:

- أخسر بذلك عشرة ملايين.

- إنك لا تخسر شيئاً، فهذا ثمن الخدمة، هل تريد الخدمة ممن يبيع ويطبع ويوزع ويدير مجاناً؟.

- هل توجد بالله عليك، وسيلة غير هذه؟..

- اشتر ألف بطاقة من عشر محافظات وأضمن لك أن لا تخسر أبداً.

ثم سأل صديقي في الطفولة بيأس شديد:

- إنني لا أريد أن أخسر فقط.. ما فائدتي من كل هذا حين لا أربح..

لقد ذكرني صديقي بما قلته له حين قال:

- من غير المعقول أن لا تفرح حين تخسر.. وأنت تلهو وتلعب هكذا مجاناً..

والسؤال ما العلاقة بين هذا وذاك؟! صديقي، الذي أرغمني على شرب نخب اليانصيب، لم يبقني مندهشاً دون أن يتدخل، حين قال: اسمعني حتى الأخير.

- لقد تحملت الشموس الحارقة وبرد الشتاء القارس، اللهو له ثمن والخسارةُ أكيدة إلى أن جاء أحدهم من عمق الأرياف، بطاقته، هي بالذات ولا غيرها، ولقد تعودت على حفظ الرقم الفائز من النظرة الأولى عن ظهر قلب، بل وبمجرد نظرة واحدة، فهذا عملي لسنوات طويلة، نعم كانت بطاقته هي البطاقة الرابحة، كان ذلك في الصباح الباكر، كما نتخيل

ليلة القدر وكنت قد فهمت منك، وهذا إن يحدث، فسيكون لمرة واحدة إلى الأبد، لم أنسَ هذا أبداً يا صديقي الطيب.

أقسم بأنني لم انظر إلى البطاقة نهائيا، بل فقط سألته ساخراً:

- هل كنت تتوقع ربح الجائزة الكبرى؟

فأجابني ببلاهة وببساطة تامة:

- لا.. تسلية فقط..

فقلت له ناصحاً:

- لم تضيع نقودك يا رجل في لعبة الربح فيها مستحيل؟

فأجاب ضاحكاً:

- الحمد لله، فالخير كثير، فعندي الآلاف من رؤوس الماشية، تسلية فقط تسلية.

ولا أدري كيف خطر ببالي المزاح معه لأطول فترة:

- بطاقتك رابحة.... نعم رابحة.. وتسد نفسها.

شعر بالسرور وأنا أقدم له بطاقة جديدة، بدلاً عن بطاقته القديمة، فهو الآن يمتلك بطاقة مجاناً ودون أن يدفع شيئاً،.. كان رابحاً ولكنه لم يخسر شيئاً على الإطلاق، وألقيت بالورقة في درج الطاولة.

وأجاب بخجل ممتناً: تسلية، إنها لعبة مسلية.

لم أكن مصدقاً، كان يخامرني الشك، ولمدة طويلة، ثم خطر ببالي أن أنظر للورقة الأخيرة، وكانت دهشتي عظيمة حين تحققت من كونها البطاقة الرابحة، وصرت أبحث يميناً ويساراً، علني أصادف الرجل، ورحت أذرع السوق جيئة وذهاباً لعلي أعثر عليه، فقد اختفى الرجل طيلة اليوم، وهكذا أمضيت عدة أيام بحثا عنه فلم أجده، إنه عابر سبيل، والأفظع من ذلك أنني لم أتأمله ملياً كي أستطيع تمييزه عن سواه.

سألته بفضول: - وماذا بعد؟!. ولعنة المال التي ستطاردك كشبح؟

فقال بكل بساطة، سأتصدق بقسم منه على الفقراء والمساكين، و...

قلت: ثم ماذا؟

قال وهو يعصر جبينه: لا أدري والله لم أكن أقصد ذلك، قل لي ماذا أفعل؟. ما العمل؟.

قلت له لا تقلق أبداً فأنا خير من يصدقك، ولو لم تكن كذلك فكيف لي أن أدري؟ وأظن أنك لم تخبر أحداً سواي؟. فأجاب: نعم.

قلت له معاتباً: إذا كنت قد حصلت على هذا المال بهذه الطريقة فعلام المبالغة في إظهار مشاعر الفرح؟!.

كان يبتسم، ابتسامة عريضة عندما قال: ما الذي تريدني أن أفعله؟ أحزن مثلاً؟!. لقد صار أمراً واقعاً، ليس لي ذنب فيما حدث، فلا تعقدها علي يا صديقي، فهذا ليس من عادتك أبداً!.

قلت متساهلاً: حسناً، ماذا عن تجاهلك للساهرين وصاحب الحانة، والنادل الذي أشبعته إذلالاً بأوامرك الصارمة؟!.

كان كل شيء فيه يضحك فعيونه تتلامع متألقة بفرح، وأسنانه بدت أشد بياضاً، وكان يتكلم بثقة لم أعهدها فيه من قبل:

- واحدة فواحدة يا صديقي، هل تعلم بأنني وقبل أن تأتي بدقائق، كنت قد صحت بجميع الجالسين، وهم قلة كما تراهم، حسابكم مدفوع، وجلست لوحدي أفكر بالكيفية التي أدعوك فيها للسهرة.

صاح للمعلم، وحين حضر، حلفه أن يشرح لي ماذا حدث حين دخل الحانة، فأكد ما قاله صديقي، وسأل المعلم بوضوح إن كان منزعجاً من تصرفاته؟ فأقسم ضاحكاً، أن لا شيء من هذا يمكن له أن يكون مطلقاً.

ثم أضاف، أما عن النادل، هل تريد أن أحضره ليبين لك ماذا كانت جائزته؟

اكتفيت، وهززت راسي نافياً، فقال -: أمرك يا أستاذ.

قلت له: هذا المال ليس لك ولن تستفيد منه على الإطلاق.

قال: لقد وجدته، وكل ما هو ساقط، ملك للاقط.

قلت: الأرض كلها ساقطة فهل تستطيع التقاطها؟

قال وقد بدا منزعجاً قليلاً:

- يا أخي لقد دخنا من فلسفتك، ومنذ الطفولة وأنت.. لقد أهلكتنا بفلسفتك قلت: - أفصح، عن أي فلسفة تقصد؟ هل هي حساب اليانصيب؟

قال ضاحكاً: أما هذه فلا فقد كان فيها ربح كبير.

قلت: - ها أنت تعود لممارسة اللعب بدون أي خسارة؟!.

قال بلهجة ودودة:

- أخي لا تصرعني، إن لك عندي جائزة كبيرة.

قلت له مستفزاً-: شكراً لك، لقد ألحقتني بمعلم الحانة والنادل.

ضحك مظهراً عجزاً واضحاً عن متابعة الحوار، وراح يبحث عن طريقة للخروج من مأزق لم يكن متوقعاً، وراح يبحث عن شيء يمكن له أن يغير مجرى الحوار، فوجده في رفع كؤوس ممتلئة، وحين طرق الكأس مستغرباً برودة المشاعر قال: سنشرب حتى آخر قطرة نخب.. من؟ قل.. قل شيئاً!.

قلت: سنشرب نخب الكارثة القادمة.

قال متضايقاً: لا واللّه، ولن أدعك تشرب لوحدك.

قلت: هل تعلم أن في كل امتياز كارثة خفية؟.

قال مستغرباً: هل يمكن أن يكون الخروج من الكارثة المحدقة بنا كارثة أيضاً؟!.

كنت متردداً حين أضاف:

- إذا كانت حياتنا كلها كوارث فلماذا نشرب نخبها؟!.

قلت بتحد مفتعل:

- هل ستشرب الكأس معي أم لا؟ نعم أم لا؟.

رد بصرامة لم أعهدها فيه من قبل -: لا ، مستحيل.

ضحكت، فانفرجت أساريره، وراح يقول معاتباً

- يا صديقي كن صديقي.

قلت لنشرب النخب، قال بثقة:

- لن أشربه إذا لم يكن نخباً لمن نحب.

قلت هازئاً: لنشرب نخب بطاقة اليانصيب.

رد مستاء: لن أشرب نخبها أيضاً، فقد سقطت من عيني.

قلت مازحاً -: ولكنها لم تسقط من جيبك؟.

قال وهو يشعر ببريق أسى:

- لو مزقت النقود الآن أو أحرقتها فسيكون مصيري السجن، وستكون الكارثة، فأكون كمن اشترى بالنقود كارثة وهذا هو البلاء.

قلت له -: ما رأيك أن نشرب نخب الحل الوسط ؟

رد بحزم: سأشرب ولكن ليس قبل أن أقتنع.

قلت هازئاً: نشرب نخب الكأس ما قبل الأخير.

قال ضاحكاً: لم افهم، لم أقتنع.

وبعد تردد، وحيرة، دقق النظر، وابتسم بدهاء حازم قال:

- سنشرب هذا الكأس حتى القطرة الأخيرة، حتى نرى الأخير هو الأول.

ثم افترقنا، ولم نعد نلتقي إلا في مجالس العزاء.



# حكاية بقّال

ما إن رآني حتى أجلسني بوقار على عرشه بين البضائع والسلع وشرع بالحكاية: فتحت دكان بقالية وصرت بقالاً، أحسب ثم أحسب ولا ينتهي الحساب، نعم إن الدنيا بأكملها قائمة على الحساب، بل وحتى الآخرة يا سيدي، فالكل يعلم بأن هناك موازين وكيل وأذرع وقياسات، فالجلد بالسياط محسوب بدقة تامة، والسلاسل على الأذرع والأرجل طولها معين وعدد حلقاتها معروف وهناك أجور، أجور توفى، حسنات تضاعف بعشرات الأمثال وسيئات تقيد بدقة بدون زيادة أو نقصان.

القراءة والكتابة لم يعد لهما وجود، فالعلم الذي تحول إلى حسابات مادية بحتة رفس بأرجله كل القيم المعنوية، وئدت الثقافة وهي في طور الطفولة ولا أحد بمقدوره فك التشابك المريع بيننا وبين الفواتير والضرائب

والغرامات والأجور والأثمان والفوائد والربح غير المتوقع والخسائر الأكيدة، بل والبورصة يا سيدي ولا أفهم فيها يا سيدي.

القراءة والكتابة وإعادة الحسابات والتأمل الفلسفي للفواتير وللزيادة والنقصان، والمثالية في البحث عن خطة تنظيم العمل ذي الأذرع الطويلة والقصيرة.. خلل متراكم لا ينفع معه التقشف والزحمة في الاستهلاك، والحياة كلها جد، لا ينفع الهزل والتبذير.

إن للمصروف غاية وهدفاً، فما معنى الصرف بجنون؟

لماذا يستدين هؤلاء الناس ثم يقعون في عجز كبير؟ يشتكون من صعوبة الحياة وسوء الأحوال المادية!! أناقة لا موجب لها إلا التبذير. وأحذيتهم! لماذا يشترون الأحذية الغالية؟!! ذهاباً وإياباً يشترون الحلوى والمشروبات الغازية.. يأكلون ويشربون ويدخنون بدون توقف.

إن مصاريفهم باهظة لا يستطيع بنك صغير أن يغطي تكاليفها، الحمد لله ليس عندي أولاد.

أتعايش اليوم مع العمل طوال ساعات النهار في الصباح الباكر وإلى ساعات متأخرة من الليل، إنه عمل يتطلب ذلك، فهناك بضائع متنوعة ذات عمر محدود ومعرضة للتلف، فلا يستطيع البائع أن يستريح وفكره مشغول بموجودات محله.

كم مرة كنت أحسب في نومي، ومن حين لآخر أتذكر شيئاً سلمته ولم أقيده، أو طلباً نسيته فأسرع إلى القلم والورقة لأكتبه في الظلمة لأتذكره عند صحوتي.

عاطفتي أصبحت ضامرة في زحمة عملي الطويل، وأصبحت ببرودة شديدة، لأنني أنظر إلى السلع والبضائع من حولي.

إن أجمل ما قرأته عن عالم النفس الذي راقب طيلة شهر فئة من الناس يمرون في الشارع وسجل ملاحظاته الدقيقة.

واحد في المائة في المارة فقط يبتسمون، الابتسامة صارت أمراً نادراً حقاً والبضائع المكدسة بفوضى على الأرض وعلى الرفوف، لا تبتسم أبداً، وكالتماثيل الشاحبة التي لا تنطق أبداً، أليس هذا شيئاً غريباً؟!.

قبل أن أفتح هذه البقالية، كنت أزور بيت أختي وأشتري أغراضاً لجميع أبنائها وبناتها، واليوم توقفت عن فعل ذلك.. لقد أدركت حقيقة التبذير، وحياة الرفاهية بلا طائل، فمن غير المعقول أن تكون الدنيا بلا حساب.

حين رآني أحدق فيه ساهماً قال:

- هل تشرب فنجان قهوة؟

- سألته مازحاً:

- ما علاقة القهوة بدنيا الحساب؟

فأجاب ببداهة:

- كل شيء قرضة ودين حتى دموع العين.

سألته مصطنعاً الجد والوقار:

- صديقي هل تعرف فيثاغورث؟

رد سريعاً:

- لا لم يحصل لي الشرف.

قلت:

- لقد كان عنده دكان حساب أكبر من دكانك هذا ولكنه أفلس وأغلق دكانه، هل تدري لماذا؟

قال:

- لا والله..

قلت له على نفس المنوال جاداً

- لقد وضعوه في السجن.

قال مستنكراً:

- لا! لماذا؟ أي ذنب ارتكب هذا المخلوق؟.

قلت:

- لأنه قال للناس: إن كل ما في الدنيا يجري وفقاً للحساب.

لم يصمد في التأثر لزميله في الحساب.

- لماذا يسجنوه؟! وهل قال غير الحق؟!

قلت له:

- هل تعلم أنه بعد خروجه من السجن كاد أن يعدم؟

قال مستنكراً:

- لا.. لا غير معقول، لماذا يا أخي؟

أجبته ببرودة مخيباً لآماله:

- لأنه قال بعد خروجه من السجن: لقد اكتشفت أن في السجن عذاباً يفوق في حساباته حسابات العذاب في الآخرة.

قال صديقي البقال متألماً:

- يا لطيف يا ستار.. ثم راح يسألني بإلحاح

- أليس هذا ظلماً يا أخي؟

قلت له:

- هذا هو ظلم الحساب، انتبه لنفسك من كثرة الحساب، إلى اللقاء.

# قصص المجموعة